سامح كعوش

غواية الماء

رواية

"أرتّبُكِ كما لم أردْ

أعليكِ شمساً لأقطفكِ

مثقلةً بثمارِ الشغفِ

باقاتُ صدركِ بيديّ لتنكسر مرآة اللغةِ

وأرقص لعزفكِ في صمتِ نواحها

شعرك جسري إلى المساءِ

والليلُ يكحّللكِ بشظايا النجوم لتنيري ركنَ المقهى

وتكتبيني بشفافيةِ اللونِ

حبركِ بحري

كما أنتِ فاصلةٌ لكلامٍ عابرٍ

نوارسُ العتمةِ

كموجةٍ تغتسلينَ بزبدي الأبيضِ

وأنتِ قبلةُ الصباحِ لقهوتي

ورائحة الحليبِ لأرضعكِ"

تقديم

في هذه الرواية ينحت سامح كعوش في اللغة، وينحت في صخور أفئدتنا، فتسقط دماء الأبجدية الدافئة، في دلتا الثالوث المهيب، الحب، الموت، الغربة، وكأن بهذا المبدع أراد أن يستلف من نجمة السماء ضياءً، ليكشف به عتمة هذا الوجود، ويختزل الأسئلة، في سؤال أكبر يضع القارئ المهتم باستقراء ما بين السطور أمام خيار الثلاثي المتراكم في الوجود الواحد، الغربة في الموت، والموت في الغربة، الحب في الغربة، والغربة في الحب، الحب في الموت والموت في الحب، ورغبة الإنسان المجنونة في الجمع بين الأضداد كما هي فطرته القائمة على قانون نفي النفي وتصارع الأضداد، الموت والحياة، القوة والضعف، الحب والكراهية.

نحن إذاً أمام رواية خارجة عن مألوف الكتابة العادية، متناسقة مع الوجود، منحازة اللاشعور العظيم، هذا الكيان الضحل الذي يشكلنا، ويلوّن وجوهنا، ويرسم تضاريس شخصياتنا، ويدفع بشهوة الدماء بأن تمنح الجنس قداسته، وممنوعه الذي تخشاه الذات المتورمة، بخرافة الخوف من العيون.

والقارئ معنيٌّ اليوم، بقراءة مثل هذه الأعمال الرائدة، لأنها تشكّل منحاه، ومنحناه، ومعناه، ومغزاه، الإنسان، رواية الحلم المقموع، رواية الصوت المكبوت، تفصح عن مجال الرؤية، والهالة المفقودة، هذه الرواية تهرب بالقارئ كما تحطب بصحرائه وعرائه، وتفضح تلك الأوطان المتعطشة لاستلاب الإنسان من انتمائه، ونمائه البشري، هذه الرواية تضع الحروف بنقاط بحجم الفجيعة، التي ألمّت بالإنسان العربي بالذات، وما

أصابه من حالة الفراغ واستفراغ الكينونة في حلبات الصراع الأزلي من أجل إثبات الوجود.

فأن يموت الإنسان على متن طائرة معدنية أو ورقية أو خشبية فالأمر سيان لأن الموت هو الأصل، في قيم وشيم هذه الأوطان، وأن تصبح الضربة بديلاً للبحث عن الحياة في الحب أو الجنس أو حتى المال، أمرٌ مفرغ يطرح السؤال الأكبر: ما فائدة أن نسمّي هذا وطناً، طالما بقي وعاؤه أضيق من ثقب إبرة، لا يتسع إلا لسمّ خياط أو محتال أو دجّال أو قوّال؟.

نحن بحاجة إلى مثل هذه الأعمال الروائية كحاجتنا إلى أوطاننا التي غابت عنّا، وغيّبتنا، وانهالت تستوطن بعض الحرمان من أولويات الحياة، وعدة البقاء أحياء، كلّ ما أتمناه التأني في قراءة هذه الرواية، والتريث في تلاوة سطورها القليلة، وعدم التحرش ببعض العبارات التي قد تثير الحفيظة لكنها بحق، هي، سنام الجمل الذي منه تحتسي المفردة والحبكة شهوتها باتجاه الحياة، أتمنى أن تُقرأ هذه الرواية بعين المتذوق لجمال المفردة وينوع الجملة ونبوغ الفكرة.

حقيقة الأمر، لم أقرأ هذه الرواية إلا بقلب المتذوق، كوني لا أصدّق كثيراً تجاويف المدارس النقدية، ولا أهتم كثيراً بما ينجم به المنجمون، لأن الرواية، عمل إبداعي تخرج الفكرة من شرنقة شاعر لا تقبل التسطير ولا التأخير ولا التنظير، بل هي علم جمال بذاته، يختزل كلّ التأويلات والتفسيرات، والاحتمالات التي لا تُحتمل، ولا تكتمل دائرتها مهما تمدّدت وامتدّت، فإن مدى الرواية يبقى هو الأشمل والأكمل والأجمل والأقرب إلى الروح مما يبطنه أو تظهره المنظورات.

نحن بحاجة إلى قراءة مثل هذه الروايات لنقبض على أعمارنا الهاربة، ونمسك بدمائنا المتسربة جراء الحنث والخبث الإنساني، المتمثل في السياسة التي دائماً ما تعمل على قراءة النصف الفارغ من الكأس، ونحن بحق كؤوسنا مفرغة منذ أن أخذنا بأسباب الميكيافيلية وما بعدها من نظريات الأمر الواقع.

نحن بحاجة إلى مثل هذه الرواية كحاجتنا إلى أعمارنا المتسكعة على أرصفة العوز أو الشغف إلى بارقة أمل.

سامح كعوش في هذا العمل الروائي المهم قرض الشعر روايةً، ونثر الرواية شعراً، ما يؤكد نقلةً نوعيةً في تمازج وتماهي الأصناف الأدبية في وعاء إبداعي ملفت يساهم في رفد المكتبة الإنسانية بأعمال تخلصت من الأدلجة ووولجت إلى النمذجة، وهذا في حدّ ذاته، يفتح أمام القارئ مساحة للضوء وفسحة للاستفادة بأعمال إبداعية مميزة، تمتاز باتساع الفضاء، النفس والعقل، ولم يكن بوسعي أن أنتهي من قراءة هذا النص إلا أن أتهجى عوالم نفسية غائرة في الداخل، مستفزة ومحتشدة، تماهياً مع هذا النص المحرّك فعلاً لفلذات الذات، والمهيمن بقدرته الفائقة على الكامن من الروح.

إذاً، نحن بصدد نص غير عادي، أمام قراءة نصية تختال بالتأمل، والتمهل، تخوض الزلزلة والتحرك باتجاه اللا معقول العاقل، واللا منطق الناطق، باسم عقل باطن هو أساس مكنوناتنا النفسية والعقلية.

حقيقةً، أحببتُ هذا النص الروائي، لأنني رأيتني ورأيتُ آخر على بقعة متشحة بأعشاب برية وبحرية، تحتوي الفاعل والمفعول به، وتقول: هذان الضدان ضحيتان، والفاعل الحقيقي، مبني للمجهول والمعلول في آنٍ واحد.

في الأخير، أتمنى على من يقرأ هذه الرواية أن يعيد قراءتها أكثر من مرّة، لمجرد ملامسة ما لا يمكن لمسه، بالعين المجردة.

علي أبو الريش

اهبطي من السماء يا "يورانيا"
إن كان ذاك الاسمُ حقاً
اسمَكِ الذي تُدعيْنَ بهِ
فصوتُكِ المقدّسُ قد حداني
فانطلقتُ طائراً إلى ذُرى الأوليمب
واجتزتُ آفاق الجواد الطائر
إنني أدعو المعاني
لا حروفَ الاسم
فلستِ من ربّاتِ تلكمُ الفنون التسعة
ولستِ تقطنين قمة الأوليمب ذي الأمجاد من قديمٍ
بل قد وُلدتِ في السماء
من قبل أن تُلقى الرواسي
أو تُشقّ الأنهرُ الدفاقةُ

جون ميلتون

الفصل الأول

أطياف ذاكرة تهذي

--- 1 ---

«أنت بتعرف وين قبر بيّك. أنا كمان بدّي أعرف وين قبر بيّي». هذا ما قاله الحفيد لجدّه في أول أيام عيد الفطر، بعد أيام من حادثة تحطم الطائرة اللبنانية في كوتونو بجمهورية بنين الإفريقية.

الطفل، ابن الخمس سنوات فقد والده في فاجعة كوتونو ولم يتمكن من وداعه حتى الآن. في المحكمة، وعند الوصول إلى البهو الذي يؤدي إلى قاعة محكمة جنايات بيروت يلفت نظر الزائر على المقعد الخشبي الموجود قرب باب القاعة رجل يناهز السبعين من عمره، وتبدو على ملامحه علامات الحزن، ترافقه سيدة متّشحة بالسواد في عقدها الثالث، وهو والد أحد ضحايا الحادث الذي لا تزال جثته وجثة زوجته مفقودتين، ومعهما جثث خمسة آخرين من ركاب الطائرة.

وفي حديث مع والد الضحية، أكد لإحدى الصحف اليومية اللبنانية أن جثة ولده موجودة في بنغلادش، وأن لديه صورة لها وللصندوق الخشبي الذي توجد بداخله الجثة «وهو يحمل الرقم ستين». إلى ذلك قال الوالد إن عشرة ركاب بنغاليين من عداد اليونيفيل كانوا على متن الطائرة التي تحطمت «فقامت السلطات البنغالية بانتقاء عشر جثث عشوائياً باعتبار أنها جثث ضحايا اليونيفيل».

ومع إرجاء جلسة المحاكمة الأخيرة، تبقى سبع جثث لسبعة لبنانيين في عداد المفقودين، وتبقى النتيجة: قضية لم يصدر الحكم فيها، فأمس كان موعد في محكمة جنايات بيروت لمتابعة قضية حادثة طائرة كوتونو.

فقد ردت المحكمة الدفوع الشكلية التي تقدم بها الأظنّاء في ملف الحادث، وقررت متابعة المحاكمة من النقطة التي وصلت إليها، وعليه، أُرجئت الجلسة إلى يوم الخميس الواقع فيه ....".

--- 2 ---

الماء المالح، طعم الحياة الأولى في فمه، وهو في آخر لحظة فيها، يستعيد كلّ ما كان قبلاً، يشرب نخب دمه، نبيذه الأحمر المالح، الدم الذي تلوّنت به مياه المحيط الأطلسي قبالة ساحل بنين، فاختلط احمرار الأفق ساعة الغروب بالماء الممزوج بدماء الضحايا من ركاب الطائرة البوينغ 727 المنكوبة.

مئة وثلاثة وثلاثون قتيلاً، أو مئة وتسعة وثلاثون، منهم تسعون لبنانياً وآخرون من جنسيات عربية وإفريقية وآسيوية وأوروبية، جمعهم القدر بالموت الحتمي ووحّد بينهم الدم الأحمر الذي نزفته أجسادهم الملونة تبعاً للعرق الذي ينتمون إليه، الأبيض العربي

والأوروبي والأسود الإفريقي والأصفر الآسيوي، واثنان وعشرون ناجياً، صاروا جميعاً أرقاماً في إحصاء عدد ضحايا الحادث، تتناولها الصحف اليومية بكثير حياد لا يبالي.

كان هو بين هذين الرقمين المهولين، صار رقماً، صار حدثاً أخيراً تتناوله نشرات الأخبار، فقد كان المفقود الوحيد الذي لم يعرف مصيره من قبل المنتظرين على الشاطئ بعد، وصار القتيل الثالث والثلاثين، أو التاسع والثلاثين بعد المئة، بحسب تناقض الروايات عن الحادثة.

حظه العاثر يذكّره بما قسمه الله له من حياة تعب وعذاب، حتى في رقم الحظ لديه، في الرقم ثلاثة، وثلاثة وثلاثين، وتسعة وثلاثين، وتسعة وتسعين لأن فيه ثلاث ثلاثة وثلاثين.

طعم الماء ممزوجاً بالوقود المتسرب من حطام خزان وقود الطائرة، يملأ فمه بالسائل اللزج المملح، يبصق من فمه مزيجاً من الدم والبنزين وزيت الهيدروليك والماء المالح، ليفسح في مجال التنفس ولو قليلاً، بعدما استشعر عمق الجرح الغائر في خاصرته اليمنى، نتيجة اختراق حديد الطائرة جسده المحصور بين النافذة، والراكب الإفريقي الغيني السمين الذي كان يجلس عن يساره.

طعم الماء المالح يوقعه في شعورٍ بالدوار، يجتاحه غثيانٌ محموم، ورغبة في التقيؤ ولا يستطيع، لكن يسيطر عليه هذيانٌ مخيف جميل يخلط بين ملايين الصور تمر كشريط مصوّر أمام عينيه خلال ثوانٍ قليلة، وشعورٌ بالفراغ حدّ التخفف من حمل الجسد، فهو لم يأكل شيئاً منذ وصوله إلى مطار "كوتونو" قادماً من لاغوس عبر الحدود البرية بين نيجيريا وبنين، يهمس بصوتٍ خافت غير مسموع:

حتى في الموت نقع في الهذيان، دائماً تسرقنا الذاكرة إلى عوالمها الضبابية دون إذنٍ منّا، صباحاً ومساءً، نهاراً وليلاً، قبل أن نبلغ غاياتنا وبعد أن نبلغها، قبل أن نصل إلى

أهدافنا التي نعتقد أنها أكثر أهمية من طرائق الوصول إلى تحققها، الذاكرة الضبابية التي ترسم مسارنا قبل أو بعد الوصول إلى الأهداف، وخلال سعينا الحثيث ذاك، الذاكرة الضبابية التي ترسم الهذيان المخيف، وما هو إلا استعادة أدمغتنا لصور من مخزون هذه الذاكرة، صور تستدعي ألواناً وروائح وأصواتاً حتى.

طعم الماء بطعم اللذة الغريبة التي كان يبحث عنها في لحظات العشق الحميمة حين كان يمتزج بأنثاه حتى يكادا يصيران جسداً واحداً وروحين، وحينها فقط كان يشعر بالسعادة المطلقة في كونه خارجاً من ذاته، ناظراً إلى عريه وأنثاه من أعلى كأنه شمسٌ تطل لتتلألأ قطرات العرق في انعكاس ضوئها.

ها هو الآن ناظرٌ من أعلى، متحرر من عبء حمل الجسد المثقل بالذنوب الكثيرة، لكنه ينظر الآن إلى جسده يطفو على سطح الماء، وسط بقعةٍ من الوقود والزيت والماء والدم، هذا الجسد الذي ينطوي مع كل موجة تعلو فترفعه، ثم تهبط فتنزله إلى القعر وتغوص به لتعيده ثانيةً إلى السطح مغسولاً بالملح ورمل القعر والزيت والوقود، كأنه في حالة الغسل للميت بعناصر الخلق الأربعة لا بالماء وحده.

يبتلع الماء حتى كأنه يتنفسه، يفغر عينيه محاولاً التقاط الصور الأخيرة للحياة، كما أرادت له الحياة، لا كما أراد للحياة أن تكون، وحيداً كناجٍ أخير من حادث تحطم الطائرة إثر ارتطام الجزء الأسفل منها بجدار عند نهاية مدرج الإقلاع، وحيداً بين أشلاء جثث متناثرة هنا وهناك طعاماً للأسماك، وحجة وحيدة مقنعة للغياب الطويل، وغربة أصحابها عن أهلهم وأحبائهم في الوطن الحلم.

أين أنا؟ ما الذي حدث؟ كيف وصلتُ إلى هنا؟

بعيداً في وسط الماء على مسافةٍ غير بعيدةٍ عن الشاطئ، لكن برودة الماء التي استشعرها تسري في القسم السفلي من جسده، أنبأته بأن العمق تحته لا يقل عن عشرات الأمتار،

وأنه لا محالة غير قادرٍ على الحفاظ على جسده طافياً على سطح الماء، ففي الوضع الطبيعي لا يقوى إنسانٌ عاديٌّ على مغالبة قوة التيار المائي في المحيط، أو قوة تلاطم أمواجه، فكيف إذا اجتمعت القوتان معاً عند التقاء النهر بالمحيط، واجتماع قوة الماء المالح بالماء النهري العذب وقوة الأمواج والرياح الموسمية عند خط الاستواء؟.

تمر الصور أمام عينيه سريعةً خاطفة، ترميها الذاكرة دفعةً واحدةً كأنها تريد أن تتخلص منها للمرة الأخيرة، تعود به إلى بلده البعيد، هناك في لبنان، آه، البلد الذي لن يراه، والأحبة الذين لن يمنّوا النفس بعودته المؤجلة بعد سفره الذي عوّدهم عليه ولم يعتادوه، ولم يألفوا قسوته في انسلاخه عنهم قسراً، يراهم واقفين وسط الموج، أعلى من الموج، يلوحون له بأيديهم، لكنهم لا يصلون.

يرى في ما يشبه السراب وجه "شمس"، يرى يدها تمتد إليه ولا تصل، يقع في هذيان شبيه بما قرأه عن السيرانا والأغنيات القاتلة، يكاد يسمع صوت "شمس" وهي تغني على الهاتف أغنية "فيروز"، يكاد يسمعها ترنم بهمس "تعا ولا تجي، وكذوب عليي، الكذبة مش خطية، قللي إنو رح تجي، وتعا، ولا تجي".

تخور قواه شيئاً فشيئاً، وينزف الدم من الجرح الغائرِ في خاصرته، تصير الرؤية لديه ضبابية حتى يكاد يرى الأسود، الأسود العتمة الذي تبرأ منه لكنه أبى أن يسمح له بذلك، فلاحقه حتى اللحظة التي اعتقد فيها أنه استطاع الهرب منه.

هنا موته الأخير، وسط أمواج الأطلسي المتلاطمة، تقذف به يميناً ويسرة، وتحتال على جسده المنهك حتى تخور قوى المقاومة لديه، فينجذب إلى الأعماق، قليلاً قليلاً كموت بطيء مهذب، يستحي أن يطلب روحه ليقبضها بقوة النزع، بل يستلها منه كما لو أنه جدة تهدهد لنوم طفل، أو تحكي له حكاية النوم الأخيرة.

شريط ذكريات، أشبه بفيلم سينمائي وثائقي قصير، بالأبيض والأسود، وجه أبيه الذي غاب عن ذاكرته منذ عشرين سنة، الأب الذي ترك عائلته هو الآخر هارباً من قسوة الحياة، إلى غربة لم تسمح له بالعودة آخر المطاف، ودفنته في أرضها الغريبة.

وجه أمه الحبيب، الأم التي غاب عنها العمر إلا بعضه القليل البخيل، أمه التي وعدها بالعودة النهائية هذه المرة عالماً أنه يكذب، لكن هذا الكذب الأبيض يليق بأم تمنّي النفس بتحقق حلم لقائها بابنها قبل الموت، وجه ابنته الموعودة بعودته لتجلس في أحضانه كأميرة كما اعتاد أن يناديها، وجه حبيبته "شمس" بين كل النساء اللواتي جربهنّ وعذّبن قلبه الضعيف، القلب الذي ينبض نبضه الأخير الآن، يقفز من بين ضلوعه ليتسع بالماء، الماء المالح، الحلو المالح.

الشعور بالتكور الجنيني في الرحم، مصدر الاعتقاد الأول في كثير من فلسفات الوجود وميثولوجيات البشرية، التكور حول الذات في حركة الجسد الأخيرة ضد الخطر، يعلم أن هذه اللحظات هي الأخيرة من عمره القليل، يفتح فمه على وسعه، يهدي حبيبته "شمس" كلماته الأخيرة "أحبك يا أغلى الناس" فتخرج فقاقيع هواء لتتنفس رئتاه الماء بعدها، يتنفس لحظة غرقه الماء الإفريقي المالح بشيء يشبه الخدر اللذيذ، الماء الإفريقي في البحر والمطر، الماء الذي أعطاه عناصر الحياة ما بعد الموت، جبله كائناً ورقياً يتخذ اسماً لألف، وهو البطل ولا اسم له، ربما لتنكتب قصته في ذاكرة الرواية كشاهد، ويموت هو.

نعم في القصة.. يموت البطل، يعيش البطل، والبطل هو المنفيّ المختفي، المحتفي بحبه الأخير حدّ الموت فيه، يرتحل عنها إليها ليراها في شغفه وشغبه في احتضاره، راقصاً لعزفها في الصمت، يرتب آخر لحظات حياته لأجلها كما تريد هي، يرتّب موته لتنكسر

مرآة اللغة، لتنكسر سماء الغربة الكئيبة، لتنكسر طواطم السحر الإفريقي وتعاويذ ساحرات القبائل، لتزول لعنة "أوغون" إله الحب والجنس والحديد والموت.
و يبقى السؤال: "هل يعتلي السماء ليقطفها شمساً لعتمة قلبه المريض بالأسود؟".

--- 3 ---

كان كلما جرّب علاقة حب جديدة يسأل نفسه "هل هو الحب ؟"، ويجيب نفسه بنفسه عن السؤال بالقول إن هذا الجواب ومنذ البدء لا يجد جواباً شافياً.

– "نعم، فالجواب يكمن في النظرات التي لا تشبه ذاتها، بل تتخذ شكل السرقة لما هو حميمي و خاص جداً، تتخذ شكل التلصص على ما ليس لنا، وإن كنا نقارب رغبتنا في امتلاكه".

حبّه لكل أنثى جديدة في حياته، حبّه لطريقته في حبها، هو ما يشبه الحب، الذي هو بحسب حواريته الدائمة مع الذات، "مونولوجه الداخلي اليومي المعتاد"، ما لا يشبه الحب بذاته، بل إنه في الحقيقة رغبتنا في أن ندمغ الأشياء بختمٍ يثبت ملكيتنا لها، وانتماءها لنا بكليتها.

لذا فهو ما يشبه الحب، لأن الحب كل الامتلاك، لما هو ليس لنا في الواقع، و إن كان لنا افتراضاً.

ولأن ما يشبه الحب هو إخلاصنا لما نراه، وما تحتفظ به عيوننا رهينة اعترافه بسطوة حضورنا، أو انتصاره على حضورنا بسطوته وسحره".

– "هي سر الحكاية، وحضورها في المكان هو حضور السطوة المحببة التي نجهل سبباً لانقيادنا إليها، وإن كنا ننقاد إليها انقياداً أعمى، كطفل تعوّد أن يتبع أمّه، وإن زجرته أو منعته من اللحاق بها".

– "حضورها في المكان، هو الغياب المطلق لما لا يشبهها، بل هو الفراغ المطلق في كل ما يحيط بها، ولا يتسع لها حين تشرق في أيامنا الكئيبة، وليست شمساً ضاحكةً".

– "قد يُعتقد أنني أبالغ في ما أصفها به".

يخاطب نفسه "طبعاً لأنها خارجة عن المألوف، و عذبة أيضاً، بل هي التي لا تشرق في الضوء، و لا تفوح في العطر، و لا تكبر بالوصف، و لا تصغر بالصمت عنه".

هي التي أشرقت في حياته فجأة، قبل نوم يومين، و صمت عشر سنين عن الكلام، يجلس على طاولته التي اختارها بعنايةٍ لتطلّ على الشارع، فيلتقط من مكانه المتساقط

من الكلام الذي يرميه المارة في سيرهم الحثيث نحو ما لا ينتظرون، و يلقي القبض على وجوهٍ ملّت السير في المكان ذاته، في الوقت ذاته ، إلى الوجهة ذاتها في رتابة يومية مقيتة صارت الطابع الأبرز لحياتنا المعاصرة، في ما نسميه تنظيماً أو انتظاماً ولكنه في حقيقة الأمر وهم الولاء لقيم المدنية الحديثة في لا إنسانيتها، وخوفنا من أن تبتلعنا وتطحننا برحاها.

وبعد جلوس ساعتين أو ثلاث، كعادته كل يوم، في المقهى الزجاجي المطل على الساحة الرئيسة في المدينة اللبنانية الجنوبية، يجد أنه لم يصطد من الكلام إلا التافه الذي لا يغنيه عن أن يسترق السمع إلى المزيد من الكلام.

"الكلام سبب الوجود السحري والسرّي"، يقول في نفسه.

الكلام لولاه لما تميزنا عن الحيوانات ولما استطعنا التواصل في ما بيننا، اليس هذا صحيحاً؟، كلا، كلا، الكلام ليس سبب تميّزنا عن الحيوانات، فأساليب الحيوانات في التخاطب أرقى من أساليب تخاطب البشر، والحيوانات استطاعت منذ بدء الخليقة أن تقيم نظاماً اجتماعياً يخلو من الانحراف الذي يعيشه المجتمع البشري.

الكلام سبب وجودنا نعم، هو السبب السحري لأنه يجعلنا نصدّق، وأن نصدّق يعني أن نحلم، وأن نعيش الأوهام التي نبني عالمها في لا وعينا، في الذاكرة عن الحاضر والماضي، والحلم بالمستقبل.

الكلام سبب وجودنا السرّي، لأن الخليقة لم تنوجد لولا تخاطبٌ ما جرى بين آدم وحواء، فكيف يمكن أن تتمكن من إقناعه بغير الكلام؟، بغير الأصوات التي دخلت أذنيه وأسرت قلبه بعذوبة وقعها؟.

ها هو يراقب عاشقين يعبران الشارع أمام المقهى، والعاشقان يهمس واحدهما في أذن الآخر ليعلو صوت الآخر في وجهه، تقول العاشقة: "أحبك"، فيجيبها الآخر: "من الرجل الذي ألقى عليكِ التحية قبل قليل؟".

إذاً، فالمسكينة في موقف الدفاع عن النفس، كما هي الأنثى منذ الأزل إلى وقتٍ قريبٍ من يومه هذا، والمتّهِم حبيبٌ لها يعتقد أنّ له الحق في أن يعرفها دون غيره من الناس، وأن يمحو بسطوة حضوره كلّ حضور سابق.

نعم يسمع "همسهما" و يفكر، "إنها مسألة سطوة الحضور، أو هي مسألة السطوة بحد ذاتها".

أمٌّ تمر أمام الواجهة الزجاجية للمقهى، الأم تقبض على يد طفلها المسكين كما لو كانت شرطياً ممسكاً بلص يخاف هروبه و إفلاته من قبضته، وكلما حاول التفاتاً إلى الحلويات الموزعة على الواجهة الخارجية، تقبض على رأسه أيضا لمنعه من الاستدارة حتى، "إنها مسألة السطوة إذاً".

هو يكره السطوة، والقوة، وكلّ ما يشير إليها من إشارات مريضة بالجنون المديني الممنهج. فهو يكره شرطيّ السير، وتشابه ألوان سيارات الأجرة، أو تشابه ألوان لوحاتها حتى، يكره ذاته حين يسير في الشوارع ذاتها، ناظراً في شرفات الأبنية العالية المطلة عليه بوقاحة المتطفل، بينما هو ينظر في هذا التمازج الغريب بين حد كل شرفةٍ وحدود الأفق العلوي الأزرق.

هو يكره انتظام سير الناس على الأرصفة بإيقاعٍ مموسق كأنهم العسكر في تدريبهم اليومي الصباحي، ويبتسم للمتسول الذي يقاطع انتظامهم الأخلاقي الزائف ويكشف ادعاءهم بالطيبة والصدق في التبرع بالصدقات، يفرح بالمجنون الذي يعلن ثورةً على العقل الطاغي على تصرفاتهم والمسيّر لهم محدداً سلوكياتهم المهذبة، هههه، يضحك في نفسه

كلما ذكر كلمة "المهذبة" لأنها تذكّره بكمٍّ هائلٍ من السذاجة المجتمعية في الخداع والنفاق والمواربة في إخفاء السلوكيات المريضة.

يكره جريدة الصباح، وإن كان مداوماً على شرائها، إلا أنّه غالبا ما كان يرميها لزوجته كي تكون ممسحة للزجاج أو الطاولات على الأرجح، يسأل نفسه "لماذا لا تقتصر الصحف على صفحات الثقافة والفكر والرأي وفقط؟، لماذا يلتذ الناس باستعادة الخبر رغم وقوعه؟ وأي عبرة يبغونها من استعادة تفاصيله بعد حدوثه؟.

يكره الآخرين في اعتيادهم المريض على ما يسمونه هم مألوفاً، و إن كان يعتبر المألوف ما كان محبباً فيصير قريباً إلى النفس، لا ما نعتاده قريباً فيصير محبباً أما المحبب من الأشياء فلا يقع عادةً بل هو فعل عبادة، كما استسقاء المطر من السماء طلباً للرحمة النازلة من أعلى، كما دعاء الأم العاقر أن يرزقها الله مولوداً يملأ لحظات حياتها الكئيبة بالفرح والبهجة، كما هو لحظة بحثه عن أنثى سماوية لا تأتي من أسفل، بل تسقط من أعلى إليه، بين يديه.

الساذج هو في تصوراته الحالمة، يصطاد المزيد من الصور، سائق أجرة يعرقل سير السيارات في الشارع المحاذي لواجهة المقهى، منشغلاً بمفاوضة إحدى الجميلات المثيرات، يكاد يعرض عليها الركوب في سيارته دون مقابل، بل يكاد يدفع لها أجرة الصعود في سيارته، وكيف لا؟، "هي سطوة الحضور المحبب أيضاً، أو هي سطوة الغواية".

يجول بنظره في المكان، باحثاً عن صديقه المتسول الصغير، "النوري" كما يسمونه في لبنان، هذا النوري الذي يحسده لمجرد أن اسمه ارتبط بالنور، بينما يجده المتسول عبئاً عليه حمله منذ الولادة وسيدفن معه يوم رحيله عن هذا العالم، وبين لحظتي الولادة والرحيل سيبقى معرّفاً بأل التعريف ونسبته إلى قوم النَّوَر الرّحّل بما تعنيه هذه النسبة من تحقير لشأنه واستصغار له.

المتسوّلُ الصغير يسند ظهره إلى جدار المقهى الزجاجي، محاولاً إحصاء ما جناه من المارة في مناوبته الصباحية، يضع جانباً بعض الأوراق النقدية ثمناً لرغيف الكنافة الذي ما فتئ منذ الصباح الباكر يراقب آكليه بعينين وقحتين تقتحمان عليهم تلذذهم بمذاقه الشهي.

تتداخل الأفكار في رأسه و تتناسل، من الفكرة تولد الفكرة الضد، هو لم يكن يوماً ماركسياً كي يفهم نظرية الجدلية أو صراع الأضداد، و نفي النفي، لكنّ الأفكار في رأسه تتلاقح، و الفكرة في رأسِهِ ولودة كما إناث الأرانب، يستفزه في ذلك تداخل الصور التي يلتقط شريطها بكاميرا عينيه عبر زجاج الواجهة الأمامية للمقهى، المطلة على الشارع.

الحبيب الذي يتهم حبيبته، الحبيبة التي ذكّره سنّها الصغير، وبراءتها المتوحشة، بتلميذته في الصف المتوسط الرابع، التي ظلت تحاول إيقاعاً به منذ كانت على مقعد الدراسة، تومئ له برأسها لا إيجاباً للدلالة على فهمها شرحه، رغم أنها كانت الأولى في صفها، و لا إجابةً عن سؤال وجّهه إليها أو إلى صديقاتها وأصدقائها في الدراسة، بل إيحاءً بالرغبة الدافئة الدفينة في القلب الصغير المعذب بكونها الملاك الشهواني صاحبة الحلم الذي لا تتسع له حدود الفضاء، ولا تحمله عربة بابا نويل ليلة الميلاد، وهي التي نجحت في اصطياده يوماً، بعدما ملّ اصطياد العجائز من النساء اللواتي كيدهُنّ فاقدٌ عظَمَتهُ.

يعود بذاكرته إلى الوراء، يستعيد يومَ اصطحبها إلى وكر صديقه صاحب مكتبة "المختار"، بائع الكتب للجميلات بالمجان أيضاً مقابل بعض جنسٍ أو أقلّ منه، في مخزن الكتب في الطابق التحت أرضي من المكتبة، الصديق الذي عُرف عنه نهمه الشديد ورغبته الدائمة في أمرين لا ثالث لهما: الجنس والطعام، أو هو طعام الجنس، فكلاهما لديه مفضلان، يجذب النسوة العانسات والأرامل والمطلّقات إلى وكره تحت الأرض لينقض عليهن باشتهاء الذكر الراغب منذ الأزل أنثى لشهواته التي تنتهي إلى قذفٍ سريع وأحلامٍ مقيمة.

يذكر أنه اصطحب تلميذته السابقة، يوم التقاها بعد أن غادر المدرسة بعامين، مصدقاً أنّها لا تزال معجبة بكمِّ المعارف التي اجتمعت لديه، أو الإبداع الذي احترف الاهتداء إليه، بعينه الكاميرا، و قلمِهِ قلبِهِ الغزير، المريض بالنساء.

ولأنه لم يجده في مكتبته التي كانت الوكر للعاشقين "المقطوعين" بلا مكان يأوون إليه، أسند رأسه إلى كتفها، و بكى ...لم يدر لماذا بكى، لكنها مسحت دمعته الكاذبة بشفتيها، وأقبلت عليه تقبّله بشهوة امرأة أرمل، رغم أنها لم تكن قد بلغت السابعة عشرة بعد يومها، هناك مارس معها جنساً "خفيفاً"، فقبّلها ومصّ شفتيها بحنان زوج، ولذة طفل رضيع، ثم كشف عن حلمة ثديها وأخذ يعضّها برفق، وهناك وضع يده تحت تنورتها وأدخل أصبعيه مداعباً فتحة فرجها الصغير، وهناك تأوهت الصغيرة بين يديه، وبلغت ذروة نشوتها، مع بلوغه ذروة الشبق على طريقة جنس "تاو" دون أن يفكّ أزرار بنطاله حتى، هناك بلغا غاية المتعة على السلّم الداخلي لإحدى بنايات المكاتب في مدينته "صيدا" يوم جمعة، وصيدا يوم الجمعة تتحول إلى مسجد كبير، يتفرغ كلّ من فيها للعبادة، بينما هو وحيداً بينهم، كان ذلك اليوم يتفرغ للانتقام مما فاته من لذة مجنونة حرمه إياها حظه العاثر، وحياته التي اعتادت خذلانه، وغياب الصديق المتآمر مع الحظ ضده، وإقفاله أبواب مكتبته ذلك اليوم، بأن استسلم لسطوة حضورها الدافئ، "إنها ، إنها مسألة السطوة إذا ".

الأمُّ ذاتها، التي تقبض على يد طفلها المسكين، ألم ير فيها "أم أحمد" التي عرفها في أيّام الحرب، تقبض على أيدي بناتها اللواتي كُنّ يّوَزَّعْنَ هدايا للمتحزبين من أصحاب النفوذ في بلدة "جدرا" المسيحية التي استولى عليها هؤلاء المحاربون "الأشاوس" كغنيمة حرب لم يبذلوا فيها قطرة دم واحدة، في المنطقة التي كان لأمّ أحمد الكلمة الفصل فيها، "إنها مسألة السطوة إذاً".

أم أحمد، أممم أحمد، يستلذ بتذكر الصور المتتابعة، ويستحضر من أعماق ذاكرته صورتها وهي واقفةٌ وسط غرفة نومه يستيقظ على مرآها تجمع ملابسه عن حبل الغسيل، وقد قامت بغسلها ليلة الأمس، ثم تضعها على الكنبة جانب سريره، لتبدأ الكوي على الجحش الممزق الغطاء القماشي.

يتذكر أن أم أحمد عرضت عليه القيام بمهام تنظيف منزله وغسيل ملابسه وكيّها، وكانت كلما دخلت منزله بنسخة المفتاح الخاصة بها، تقتحم عليه غرفة نومه، وتستعرض أمامه مهاراتها في الغواية، وهي المصرية التي جاءت إلى لبنان منذ أكثر من عشرين عاماً لتعمل في الدعارة المستترة، وهي تسمي ذلك سياحةً.

كانت أم أحمد ترتدي دائماً قميصاً يغطي نصف جسدها الأعلى، مفتوحاً ليكشف عن ثدييها العظيمين البارزين، بينما ترتدي تنورةً شفافةً تكشف عن كثيرٍ من مشهد ساقيها النظيفتين تماماً من أية شعرة.

كان المشهد يحفزه على التلصص واستراق النظر بدايةً من تحت لحاف نومه، وكانت أم أحمد تنتبه إلى فعله الآثم ذاك، فتعمد إلى مزيد من الإغواء بأن تنحني على جحش الكوي قليلاً لترتفع تنورتها كاشفةً عن فخذين أبيضين شهيين، فيقوم هو عند ذاك بالانقلاب إلى الجانب الآخر من السرير، مصحوباً بحسرة مقاومة ارتكاب الإثم وارتباك الراغب.

وكان المشهد الصباحي يتكرر، إلى أن جاءته أم أحمد ذات يوم تشكو له وجع ظهرها الذي يمنعها من أن تكوي ملابسه، وعند تبادله الحديث معها عن أسباب الألم تصارحه بأن زوجها الغائب دوماً في بيروت، لا يقوم بواجبه الزوجي معها، وشيئاً فشيئاً تستبدله أم أحمد بالزوج الغائب، ويصير هو كلّ صباحٍ يكوي على طريقته، وكلّما انحنت أم أحمد على جحش الكوي، يصير هو جحشاً يحرث حقول أم أحمد التي تتجدد كما مساحات

الزراعة الإفريقية بالحرق كلما تم حصاد غلالها، جحشاً يدفع محراثه من أمام ويحرث، يدفع ويحرث حتى تكاد سكةُ حرثه تنكسر فيرتاح إلى انكساره وترتاح أم أحمد إلى انتصار غوايتها.

كان يغرق في أم أحمد، يمتطيها كأنها فيل هندي ضخم، يتسلّقها، وهي الماهرة في مقامات العشق طياً وكيّاً وفتحاً وإقفالاً واشتعالاً، أم أحمد العظيمة بثديين عظيمين كان يمسك بهما من خلف بيدين تكادان لا تحتويان استدارتيهما، أم أحمد القادرة بمؤخرةٍ مصقولةٍ تنفرج عن فرجٍ مقلوبٍ إلى خلف كأنه تُركَ هناك منذ لحظة التكوين الأولى، لكائن شهوةٍ بجسدٍ صُبّ خصيصاً ليكون لأم أحمد دون غيرها من النساء، أم أحمد الحارقة بفرجٍ كأنها استعارته من عذراء ابنة ستة عشر عاماً، يصدق فيه قول الشاعر "ولها هنٌ راب مجسّته، سهل المسالك حشوه وقدُ/ فإذا طعنتَ طعنتَ في لبدٍ، وإذا سللتَ يكادُ ينسدُّ"، أم أحمد الخارقة بكتفين عريضتين اعتادتا الاتكاء على أي جسم من أمام، احتمالاً لأية قوة دفع وولوج من الخلف، من أسفل.

سائق سيارة الأجرة، يشبه في تصرفه السائق ذاته الذي التزم إيصالَ ابنة الجيرانِ، حبيبته الصغيرة، إلى مدرستها في آخر الشارع، السائق الذي لم يوصل الصغيرة إلى مدرستها بل إلى بيت الزوجية مكرهةً، وهي التي لم تكن بلغت السادسة عشرة من العمر يومها.

السائق ذاته الذي استطاع بعشر دقائق أن يسرق من الصبية الصغيرة عشراً من سني عمرها، ولا يزال يسرقُ جسدها الماسيّ كل مساء و صباح بعقدِ احتيال قانوني مدعّم بسنةِ الله ورسوله.

المتسوّل الصغير، "النّوري" الذي عرفه في الشارع الرئيسي في المدينة، وألِفَ حضوره أمامَ مدخل الجامعة التي درس فيها لسنين متواليةٍ. ثمّ ها هو هنا يقف متسولاً زبائن المقهى الزجاجي أيضاً.

يفكر "ماذا لو أحصى النقود التي دفع بها إليه كما علمته أمه "بيساره دون أن تدري بها يمينه"، طوال السنوات الماضية؟، ماذا لو انهالَ عليه ضرباً مطالباً إيّاهُ بكل القروش التي أعطاه إياها على مرّ تلك السنين؟، ماذا سيقول عنه الناس و المارةُ؟. حتى للمتسول سطوة عليه في الحضور، "إنها مسألة السطوة إذاً".

لا يذهب بعيداً في جنونه، بل لا يسمح لنفسه بالابتعاد أكثر من مجرد التخيل، تلك المقدرة السحرية التي هي بحق لا الدين كما في المفهوم الماركسي، "أفيون البشرية كلها"، يبقى قانعاً بأفكاره المعدّلة جينيًّا تبعاً لأحوال المدينة وأهواء ساكنيها، إنّه أكثر اعتدالاً ممّا يبدو عليه، بل أكثر ذكاءً من أن يجعل من نفسه أضحوكةً للمارة وزبائن المقهى.

يبتسم لمجرد التفكير بأمر أن يطلب من المتسول تبادلَ الأماكن، ماذا لو جلس الصبي المتسول على طاولتهِ؟، وماذا لو جلس هو على قارعة الطريق يستجدي المارة؟ الجواب هو أنّ المتسول قد ينجح بسهولة في أن يحتل مكانه، لكنه سوف يفشل في أن يقوم بدور المتسول، لأنه ببساطة "لا يمتلك حضوراً، لا يمتلك السطوة".

يقلِّبُ صفحات جريدة الصباح، ويكاد لا يقرأ منها حرفاً، اللهم إلا التهامه كلمات التحقيق الثقافي الذي جذبه موضوعه.

ينهي كوب النسكافيه و يهم بالمغادرة.

––– 4 –––

يستوقفه عبورها المساحة الضيقة الفاصلة بين طاولته و الجدار، يشعر بما يشبه هبوب النسيم أو هو هبوب النسيم فعلاً، هو الريح التي تعصف بالقلب فيرقص لها طرباً، و يرتعش لمرورها به، و لو تركته مريضاً مرتعد الفرائص.

يستوقفه سحرها، أو تغلبه سطوة حضورها، و هنا هو لا يهتم بفلسفةٍ تبرر له تصرّفَ العاشق، و المرأة، وسائق سيارة الأجرة، و لا حتى المتسول، بل يكاد يرى لزاماً عليه أن يطلب من الفتاة نسيان كلّ ماضيها لتبقي على صورة عاشقها وحيدة فريدة في قلبها و عقلها الباطني و الواعي معاً، و ألاّ تترك مجالاً لما قد يعتبر خيانةً و لو فكرية حتى.

يكاد يرى لزاماً عليه أن يقبّل رأس الأم التي تقبض على يد طفلها في الشارع، بل أن يطلب من الولد أن يقبّل يدها طالباً منها السماح.

يكاد يرى أن من واجبه تسهيل مهمة سائق سيارة الأجرة في اصطياد ما شاء من الجميلات، و مساعدة المتسول في سرقة المال من جيوب المارة دون أدنى اعتراض، "إنها مسألة حضورها المضفي على الوقت طعماً آخر".

يودُّ لو تستدير، يفكر:

- "ماذا لو لم تستدر؟"، "ماذا لو بقيت طوال الوقت جالسةً على هذا النحو؟"، إنّها قضية الانتظار القلق الذي لا ينتهي لأنه أصل الحكاية".

ها هي تقف، تنظر إلى الأسفل، نحو الشارع.

- "إنها تنتظر أحداً"، يقول في نفسه، "ماذا لو كانت فعلاً تنتظر أحداً؟"، "ماذا لو كان حبيباً يغار هو الآخر على ما يملكه؟"، "ماذا لو سقط في التجربة؟ تجربة أن تكون متزوجةً هي أيضاً؟"، "أليست الحال هكذا في الغالب؟".

يتأمّلها مليًّا، هي تبدو في العشرينات، أيعقل أن تبقى الجميلات من مثيلاتها دون زواج؟، بالطبع لا، ومن هو كي تنتظره الفاتنات دون غيره من جنس الرجال؟.

يحاول أن يصدر أصواتاً كي تنتبه إلى وجوده، لكنها تجلس صامتة لا تتحرك، كمن يمارس طقساً دينياً في الصمت و الصلاة، أو في رياضة اليوغا التي انتشرت بين نساء المجتمع ورجاله مؤخراً.

يتنحنح، يسعل و يعطس أيضاً، يتمنى لو يستطيع أن يعوي.

- و"لمَ لا؟".

سوف يعوي إذا استطاع، يعوي لما فاته طوال سنين غربته الطويلة في غرب إفريقيا، سنين موته في هجرته القسرية ساعياً إلى الابتعاد عن بلد لا يفيه حقه من الرزق الحلال، وعن حياة لا طعم فيها للحياة.

يحاول أن يعوي فعلاً، أو أن يُصدر حتى صوت مواء القطط، وهو الأقرب في حالته تلك ولحظته تلك، إلى قط في ذروة قدرته الجنسية في عز شباط، لربما استطاع بالعواء لفت انتباهها و جذبها إليه.

- "أوليس العواء سبيل تخاطب وتعارف بين ذكور الذئاب و إناثها؟"، "لمَ لا أكون ذئباً طالما أنّني في حقيقة أمري لا أختلف عن الذئاب كثيراً في جوعي و اشتهائي لها".

يوقع لكن دون قصد، كوب النسكافيه الفارغ على الأرض. ولكن، تبقى هي جامدة دونما أدنى حركة، تتأمل اللوحات التي تزين جدران المقهى، و هو في الزاوية يراقبها من بعيدٍ بعينيه الحارستين.

يبقى مسمراً إلى كرسيّه يراقبها.

ها هي ترتشف فنجان قهوتها البيضاء على عجل، يسمعها تتمتم على الهاتف بصوتٍ همسٍ ملائكيٍّ.

تعيد الهاتف إلى حقيبة يدها، تحمل بيدها ما يشبه المجلة، و تمضي مسرعةً.

يقف صامتاً كتمثال فاغر الفم، يحدق فيها كمن أصابه مسٌّ من جنون، "ما أروعها! ما أجملها!".

يرى حولها هالة الضوء الذي أمضى ما لا يحصى من الأيام باحثاً عنه، ثمّ أمضى ما تبقّى من أيام عمره باكياً عليه.

ماذا لو أمسك بيدها في هذه اللحظة بالذات؟ ماذا لو قال لها ببساطة:" كنت أبحث عنكِ، أين كنتِ؟".

- "أليست البساطة هي المطلوبة في العشق؟ بساطة الكلام الذي يسحر و يأسر، ثمّ يغيب تاركا الصمت يسود حين النظرات تفصح عن المشاعر فتفضحها".

ماذا لو صرخ بأعلى صوته "وجدتها؟"، لكنه لم يفعل شيئاً من ذلك، و اكتفى بأن شيّعها بنظراته إلى أن غابت عنه في ازدحام الشارع المقابل.

--- 5 ---

ترك المقهى عائداً إلى بيته، حاملا الكثير من الهموم التي لا يخصه منها إلا أمر واحد، وكل ما تبقى عائد إلى الأهل، والأصدقاء، والزوجة.

- "هل كانت عشراً من السنوات؟".

لا يذكر، أو أنه لا يريد أن يتذكر، المهم أنه عاد ليرى ابنته الكبرى التي بلغت السادسة عشرة من العمر، وكان قد تركها صغيرة بسنواتها الست يوم قرر أن يهرب بما في قلبه من فسحة أمل، بحياةٍ أفضل ولو قليلاً، وصحوةٍ من كابوس حياته الرتيبة مع زوجته، وعدم تصالحه مع الحياة نفسها.

ابنته الوحيدة، عرس الحياة المتفتح أمام عينيه ورداً ونرجساً، طفلته الصغيرة، ملاك الرحمة التي اختزل العمر في عينيها الصغيرتين العسليتين يوم ودّعها في مطار بيروت قبل عشر من السنوات.

آه هي الغربة القاسية، يستعيد ألمه في عدِّ لحظاتها وهو جالس في بيته مع أصدقائه.

أصدقاؤه هم كما كانوا منذ عشر سنوات، لم يتغيروا، وإن تمكّن العمر من سرقة بهجتهم قليلاً.

أصدقاؤه مارون العاشق المجنون، حسين الشيوعي المشاغب، غسان الحالم، وناظم الجميل، كم يشتاقهم هو! كم يتمنى لو يستعيد كل لحظة هربت منهم فلم يقضوها سوية قبلاً.

أمه هنا أيضاً، يحبها كثيراً هو، ولم ينقطع عن الاتصال بها يوماً، وقد كانت هي السبب في إسماعه صوت ابنته على الهاتف، ابنته قالت له: "أبي، أنا أشتاقك كثيراً، أبي، متى تعود؟".

كان الصوت سبباً، الصوت دائماً يكون سبباً لأشد الصور وضوحاً، سبباً لأمرّ الآلام و أحلى الأفراح، الصوت قبل الصورة لأنه يحمل الإيحاء، يحمل الغواية بما يأتي من تجسد لاحق.

يوزع فيض مشاعره بين أم يكاد العمر يداهمها، بعدما حرمها أعز أبنائها وأقربهم إلى قلبها عشر سنوات كاملة، و ابنةٍ ترهن ما يأتي من عمرها حضوراً لأجله هو، الأب الذي حرمته الحياة رؤية فلذة كبده لمجرد أنه لم يوفق في اختيار الزوجة يوماً، و"من قال إنه اختارها أصلاً؟".

بين الجميع، مارون هو الأقرب إليه من بين أصدقائه، مارون الذي يجلس أمامه الآن مستمعاً إليه بكثير ود ومحبة، يتبادلان نظرات الحب كعاشقين، وهو ليس لوطياً.

مارون شريكُ مؤامرته ضد روتينية حياته مع زوجته قبلاً، شريك نضاله الطالبي في الجامعة، و نضاله الاجتماعي في تخريبه القيم الموروثة و عدائه المزمن لها.

مارون الحامل سرّ "نسرين"، و النزهات النهرية، و نزهاتٍ أخرى لا يستطيع حصرها أو استرجاعها حتى، وربما هو لا يودّ استرجاعها أصلاً، لأنه كان يرمي يومها شباكه في النهر ليصطاد روحاً، فلا يوفقُ إلا بأجسادٍ تعرض عريها ليقع هو في اشتهائه لها، ثم في الانطفاء لأنها لا تدوم في عمرهِ المحتاج جداً إليها.

يجلسُ بينهم لكنه في حقيقة الأمر هناك، يقف على زاوية الرصيف قرب المقهى منتظراً عودتها، بعدما غادرت المقهى الزجاجيّ على عجل، هو الذي بقي واقفاً لأكثر من ساعتين، يرجو عودتها، لكنها لم تعد.

--- 6 ---

في اليوم التالي، يجلس في المقهى ذاته، على المقعد ذاته، ينتظر طويلاً، يقلّب صفحات جريدة الصباح و لا يقرأ حرفاً، يجلس منتظراً وفقط.

هي المرة الثانية، يراها تدخل الطابق العلوي من المقهى الزجاجي، يراقبها من مكانه في الزاوية حيث اعتاد أن يجلس، كي يكون بإمكانه أن يراقب المداخل والمخارج، عادته التي ألفها منذ كان مقاتلاً "حمار مبادئ" كما كان يسمي نفسَهُ، في الحروب اللبنانية الأخيرة، التي سبقت سفره إلى الخارج.

بدأ ينظر إليها بصمت، بدأت تحدق في عينيه، ومعها غاب بعيداً في حلم العينين الآسرتين.

- "لعينيها لون الشمس ولهما بريقها أيضاً، لما لا أكتوي بنار شمسها الدافئة؟، لما لا أحترق بجمر عينيها واتقادهما بالشهوة؟ لما لا أغيب عن العالم فيهما؟"، تلك العيون التي أحبَّ، وغاب فيهما، في ما يشبه الحلم، ولم يصحُ إلا وهي تقترب منه، طالبةً منه أن يعيرها الجريدة الوحيدة في المقهى، والتي كان ممسكاً بها بيديه، يرمي بنظراته إليها من خلف صفحاتها.

سألها عن سبب اهتمامها بالجريدة بعدما مدّ إليها يده ملامساً أطراف أصابعها، دون أن يحرر الجريدة من يده، ودخلا في نقاش سياسي عقيم، كعادة كل اللبنانيين الذين يلتقون في كل شيء إلا السياسة، ومن السياسة هربا فوقعا في النظرة فالإعجاب فالموعد فاللقاء.

- ما اسمك؟
- اسمي شمس.
- ماذا تعملين؟.

- أعمل في جريدة محلية، في قسم التحقيقات، لهذا جئتُ استعير الصحيفة منك كي أرى إذا كان تحقيقي عن أوضاع استغلال الأطفال في لبنان قد تم نشره، فأنا أعلم أن هناك ما يمنع ذلك.
- وما الذي يمنع ذلك؟.
- يمنع ذلك كل شيء، بدءاً من الحكومة والأشخاص الذي يحكموننا، وما يربطهم بمشغّلي الأطفال من علاقات عمل، بل بدءاً بمسؤوليتهم عن المعاناة المعيشية التي يرزح الشعب تحت أعبائها فلا يسع الآباء إلا أن يرسلوا أبناءهم الصغار إلى ميادين العمل طلباً للمردود المادي الشحيح الذي يحصّلونه.
- آه لا أستطيع أن أصف لكِ معاناة الأطفال حيث أعيش في إفريقيا، الأطفال العراة الحفاة في الشوارع والأزقة، يتسوّلون قطعة الخبز وشربة الماء، يفتك بهم المرض بدءاً بالملاريا، مروراً بأوبئة لا يعرف الأطباء ماهيتها وكيفية علاجها، انتهاءً بنقص المناعة المكتسبة "الإيدز".
- أنت ما الحظ السيئ الذي رماك في القارة البعيدة السوداء، وماذا تعمل هناك؟.
- أنا أعمل في مجال الإلكترونيات والكمبيوتر في إفريقيا، بعد أن عملت في التدريس هناك، التحقت بدورات تعليم لصيانة أجهزة الكمبيوتر وتركيبها وأنظمة تشغيلها المختلفة، حتى صرت ماهراً في كل ذلك، ما مكنني من أن أشرع في إدارة عملي الخاص في هذا المجال.
- لكن ما علاقة الكمبيوتر بالتدريس؟
- أعتقد أن الرابط الوحيد بين أمور حياتي هو الشغف في ما أريد عمله وإنجازه، وها أنا أمامكِ يحفزني حافزٌ سريٌّ على التقدم منك بطلب أن تعطيني فرصة لتتعرفي إليّ أكثر عن قرب، وأعرفكِ أكثر.

لم يخبرها عن كثير من تفاصيل عمله وحياته واكتفى بأن استغل فرصة تعارفهما كي يحكي لها عن أحلام وطموحات وأوهام في تحقق شروط حياة أخرى أكثر جمالاً وإقناعاً، عن الشغف الذي اعتبره الكلمة السحرية التي تفتح أبواب قلبها أمامه، وهو المتأمل ألا تبتعد عن ناظريه إلا ليلتقيها من جديد، وكان أن اتفقا على أن يلتقيا في اليوم التالي.

---7---

كان إلى جانبها، يقود سيارته بصمتٍ، وكانت تراقبه بعينين حذرتين، كان يقبلها بعينيه، يسرق الاتجاه لتلتقي نظراته بنظراتها، ليلثم الشفتين النيئتين بقبلاته الملتهبة، وتسهّل هي عليه مهمة الوصول إلى شفتيها بأن تتمدد في المساحة القليلة بينه وبين مقود السيارة، متيحةً له فرصة إظهار مهارته في القيادة، وفي التقبيل معاً.

يخشى أن يغمض عينيه لئلا يتسبب بحادث سير يودي بهما معاً، لكنه يغرق في اللحظة اللذيذة التي تشبه الحلم، في لحظة اللذة العسل والعرق المالح، طعم الملح الذي يعيده إلى حالات عشقه لحبيبته الإفريقية "كيمي" وهو الذي نسيها بمجرد أن التقى بحبيبته "شمس".

يسأل نفسه "لمَ أقلّها بسيارته؟"،لمَ كان يتمنى أن تقبل دعوته؟، "لمَ هي دون غيرها؟"، هي إلى جانبه، أمامه، حوله، تحاصره بالقبلات حتى يغرق فيها ويثمل، وهي التي التقاها البارحة مصادفةً في المقهى الزجاجي، لماذا انكتب لهما أن يلتقيا ثانيةً في موعد غرامي هذه المرة، ودون مقدمات، قالت له:

- تعال غداً لتقلّني من أمام منزلي.

وها هو الغد قد أتى، وذهب هو وأقلّها من أمام منزلها، ها هو يصحبها في نزهةٍ بسيارته إلى مطعم أبو وليد للمأكولات البحرية على الساحل الشمالي لمدينة بيروت، يقود السيارة بيد، ويغمرها بنظرٍ حنون عاشق، وهي، هل كانت تشاركه المشاعر؟ أم كانت تشاركه القيادة ضمنيّاً؟.

ينظر في عينيها ليرى بحره، بحراً يتسع لهما دون سواهما.

– "لا ليس البحر، البحر صغير، هي يليق بها المحيط، المحيط الكبير، الأطلسي الحاضن قارات أوروبا وأمريكا وإفريقيا معاً، الأطلسي الذي ينتظره على المقلب الجنوبي من الأرض على أحر من الجمر، جمر "الجنس" الإفريقي الأسمر، جمر حبيبته "كيمي" ومثيلاتها من السمراوات.

هي وهو والسيارة تسير بهما إلى غايتيهما المتماثلتين، وهو بخلاف عادته في تفحص الإناث سابقاً، لا يعريها بنظراته ليكشف عن جسد يملّه سريعاً، بل يلبسها شبقه وشوقه ولون رغباته المجنونة مسكوبةً في فم وشفتين، وصدر يعلو ويهبط بتسارع أنفاسها، وضيقها عن مجاراة جنون شبقه الغريب.

يوقف السيارة جانب الطريق، يحني مقعد السائق إلى الخلف قليلاً.

هي في تعدد أحوالها، وامتلائها بالرغبة الصارخة، تتجلّى ملاكاً مباركاً، يهبط عليه من فوق، لا نسراً كما الأخريات من النساء، اللواتي كنّ ينشبن مخالبهنّ في جلد ظهره وصدره، و"يغتصبنه" فيمزقن غشاء بكارته الروحية التي أصابته عدواها إثر قراءته كتاب "أدب الحياة" لكمال جنبلاط، وتأثره بما ورد فيه من تعاليم في العادات والعبادات.

تهبط عليه "شمس" لا كنسرٍ كالنسوة الأمازونيات قبلها، أو ليلٍ كحبيباته الإفريقيات، بل ملاكاً من نور.

تهبط عليه من فوق، و تشرق كشمس، تضيء عتمة قلبه بالحب.

يا الله، في تلك اللحظة يكتشف، ويُسرُّ باكتشافه الجديد.

تتعملق فوق جسده المستسلم لها، الخاضع لأحوال غوايتها ورغباته، يغمض عينيه على تلك اللحظة.

هو لا يريد لهذه اللحظة أن تمرّ، لا يريد لها أن تبتعد عنه، بل يغمض عينيه على صورتها البيضاء، ملاكاً أبيض يحلِّق فوق، ثم ينقض عليه من الأعلى، يراها تصير بيضاء كالثلج أو ملاكاً من نور، أو تتقطر عسلاً يستسيغ طعمه في حلقهِ، و يسري العسل بدل الدم في عروقه فتنبض بالحياة، كم هو جميلٌ شعوره بالاكتفاء اللذيذ!.

- "أفكارنا تلوّننا، أفكارُنا تعطينا اسماً ولوناً وعِرقاً، ومشاعرنا هي التي تلوّن عيوننا بالرغبة، و النشوة تحرق جلودَنا بالأسمر، وتشوينا باللذة الحمراء".

هي الألوان التي هرب منها قبلاً، أحمر، أصفر، أخضر، ألوان المدنية التي قبضت على قلبه وما استطاع أن يألفها أو يتأقلم معها، بل قضى زمناً لا يستطيع المقام فيها، وظل يومياً في رحلةٍ طويلةٍ بين بيروت المدينة الحلم نهاراً، والكابوس ليلاً، وصيدا القرية المدينة حلماً يبقى على حاله ولا يكبر، يبقى طفلاً يستيقظ مع الشمس، ويلوذ بفراشه عند الخامسة مساء.

ولكن، لماذا كتب له القدر أن يضيف لوناً جديداً إلى ذاكرته المريضة بالألوان؟ الأسود الإفريقي منذ "كيمي" أو قبلها، الأصفر الصيني في "آنّا" زوجة رجل الأعمال الصيني التي التقاها في حانة في "لاغوس"، البرونزي الإسباني في "صابرينا" التي التقاها هي الأخرى في حانة في "إشبيلية" في جنوب إسبانيا، البرونزي الفرعوني في "أم أحمد"، لماذا هو بالذات؟.

تمر مدةُ عطلته في لبنان سريعاً، كأنها العمر يُسرقُ منه مرةً أخرى.

أسبوعان مرّا بلمح البصر، و ها هو في طريقه الى المطار، يتمسكُ بكل ثانية مرت خلال هذين الأسبوعين، لا كما يوم سافر قبل عشر سنوات، وكان يومها قد رمى بكل ما يحمله المسافر من ذكرياتِ أحبةٍ ووجوه لهم.

بأيديهن تلك التي
تحت ياقاتهنّ
تنتظرُك في السرّ
وتدعوكَ
كأنّهنَّ يُرِدْنَ
أن يلففنَ يديكَ
في ورقٍ

التقطنه

من على الأرض

راينر ريلكه

الفصل الثاني

ملاك العسل

--- 1 ---

يهرب من ذاكرته المريضة بالنساء، من أم أحمد مروراً بنسرين، حتى "كيمي" الإفريقية التي تشبه قطعة الشوكولا السوداء بالحليب التي كان يشتهيها دوماً.

يهرب من ذاكرته إلى رسالته إليها، إلى حبيبته "شمس"، إلى شمس حياته، يضمّنها عباراتٍ من رواياتٍ قرأها، ولأنها أعجبته فقد ظللها باللون الأصفر تمهيداً لكتابتها في الرسالة، كما اتفقا في لقائهما الأخير قبل سفره/ فحبيبته "شمس" تعشق الأدب، لكنها لا تمتلك متسعاً من الوقت، لذلك فإنها استطاعت إقناعه باتّباع طريقة في القراءة يستفيد كلاهما منها وما عليه إلا أن يقرأ الكتب وبخاصة الروايات التي اشترياها سويةً من بيروت، ليقتل بذلك شعوره بالوحدة القاسية في إقامته هناك في إفريقيا، ثم يرسلها إليها بالبريد كي تقوم هي بقراءتها مستفيدةً من الدلالات المضمونية ذات المغزى الفلسفي والفني العالي للعبارات التي خطّ عليها باللون الأصفر تمييزاً لها عن غيرها من العبارات في الكتاب الذي ينتهي من قراءته.

- "هي في بحثٍ دائمٍ عن حقيقةٍ ما، في مكانٍ ما، حقيقةٍ تختصُّ بشيءٍ ما، لا تدري ما هو، ربما هو الحب!".

هي حبه المكتشف حديثاً كقارةٍ من قارات العالم الجديد، واعدة بكل خصب وثروة، وبكثير تحقق لأحلام ملايين البشر المهاجرين إليها بشغف وأمل.

لذلك كان عليه في بداية تعارفهما، في الفترة التي قضاها في لبنان، أن يكون أستاذاً لها، يدرّبها على القراءة و الإلقاء، يقرأ لها أحياناً كثيرةً، ويقرأ عنها أحياناً أخرى، وفي الحالين هي تنصتُ إليهِ باهتمامٍ بالغٍ، و تجلس أمامهُ كطفلٍ مهذبٍ في قاعة دراسة، أو كمؤمنٍ يخشع أمام محراب في معبدٍ ما.

في لبنان، وفي المدة القصيرة التي جمعتهما معاً، بين بيت صديقه ناظم في أقصى شرق بيروت، وبيت صديقه الآخر جلال في أقصى غرب بيروت، وعلى امتداد شارع الحمراء

كانت مساحة شغفهما وشغبهما، كانا يذرعان المسافة جيئةً وذهاباً، ويستريحان ليتناولا وجبةً سريعة عند "ملك البطاطا"، أو فنجان موكا بيضاء في "ستار بكس".

في لبنان تجلّى الحلم العذب الذي كان يعدهما بحياة رائعة، حياة عاشقين التقيا في العشق خارج التقاليد والأعراف ورتابة اللقاءات المخطط لها في المدن، كأنه لقاء الراعي ديموزي بالإلهة إنانا، وإن داخل شقة من علب السردين في بيروت، المهم أنها اتسعت بهما، فأشرفا على المدينة من أعلى، كأنهما طائرا عشقٍ انبعثا من رماد الأساطير القديمة.

يجلس إلى مكتبه، ليخط الرسالة، يبثها القليل من المشاعر، يعلم أنّه لا يحب الكلام، بل يخافه.

يختار لها مجموعة الأقوال و العبارات التي احتوتها تلك الروايات، لعلّه بها يؤكد نظرته إلى الحب، و نظريته فيه.

– "لمَ لا أجيئكِ ؟ أتسلل تحت الغطاء، أداعب شعركِ بيدٍ، و الأخرى أدسّها في قميص نومك، ألجكِ إعصارَ عشقٍ و شبق".

يكاد لا يقوى على مجرد الفكرة، على مجرد التخيل، يكتب لها في ورقة أخرى منفصلة، مقطعاً من حلم إنانا:

يقرأ بصوت عالٍ كأنه يشاركها الحلم:

- عندما سأستحم من أجل الملك، من أجل الإله، وعندما من أجل الراعي دموزي سأستحم
- عندما أدهن شفتي بالمرهم العنبري، وأضع الكحل حول عيني، وعندما ستضغط يداه الساحرتان على خاصرتي.
- وبعد أن يعمد الإله الراعي دموزي، المضطجع بقربي، إلى دعك نهدي، وعندما سينقل يده إلى فرجي المقدس.

- وعندما مثل سفينته الممشوقة، سوف ينقل الحياة إلى فرجي.
- فرجي، أنا الصبية من سيحرثه لي؟، فرجي أنا، هذه التلة المنتفخة، هذه الأرض الرطبة التي هي أنا، أنا الملكة، من الذي سيضع فيه ثيرانه للحراثة ؟!.

يبتلع ريقه، فيحس طعمَ عسلِ شفتيها فيه، يتلعثمُ، يشهقُ، كما لو تكوّرت بين شفتيه حلمة ثديها الذي يشتاقه الآن، في ابتعاده القسريّ والمؤقت عنها، كما يحاول أن يبرر لنفسه.

ثم يكمل الكتابة، "أيّ فضيلةٍ في أن يحرم الإنسان نفسه من لذّةٍ لم يسبق له أن ذاقها؟".

- "أجل، أي فضيلةٍ في أن يحرم الإنسان نفسه من لذّةٍ لم يسبق له أن ذاقها؟"، يوافق الكاتب رأيه، ويشكر ربّه على ما أعطاه من نعِمٍ لا تحصى، و لذّاتٍ لا تُفوّت.

إنّه الماركسي المؤمن، إنّه المؤمن جداً، لكن على طريقته الخاصة.

يستعيد تلك الآية القرآنية الأقرب إلى قلبهِ، والتي بها أعلن إيمانَهُ، حين أهدته إيّاها، محفورة على علاّقة مفاتيح ذهبيةٍ، "نسرين" الفتاة التي عرفها في الجامعة يوماً، الآية التي تقول:"ولسوف يعطيك ربّكَ فترضى".

إنّه المؤمن الأول و الأخير بالله، في عقيدته الإيمانية الخاصة به.

يقرأ مع أحد الكتّاب من جديد، "إنّ من يرفض رؤية الله في الصور التي تُقدَّمُ إليهِ، هو الأقرب أحياناً من غيرهِ إلى صورة الله الحقيقية".

--- 2 ---

يذكر نسرين، الفتاة الجامعية التي أحبّها.
أحبّها فقط لأنّ ركبتها بيضاء، وصدرها كان أبيض كذلك، لكنّه لم يكن يرى منها إلا ركبتها.
في كافتيريا الجامعة كان يلتقيها، وفي الزاوية هناك كانا يجلسان، وكان يستلذ الجلوس قريباً إليها، بل ملتصقاً بها، ليشعر بدفء فخذها و بياضه، يعلم أن اللون شعور أيضاً، ليس لوناً فحسب، الآن وهو يتذكر ذلك يتعلم، يعلمُ لأنه جرّب امتزاجه هو بالألوان، الأبيض و الأسود، جدلية التجلي، جدلية الحضور في الغياب، يصير الأسود رمادياً و الأبيض ضبابياً ويمتزجان فيه، هو الأبيض الإفريقي، عطيل شكسبير ربما.
كان في زاوية الكافتيريا يشعر بالأبيض يتوهج، يشعّ ويضيء.
فخذها الذي تعلوه الركبة البيضاء، أجل تعلوه، لأنه كان لا يرى إلا ركبتها.
كان يرى ركبتها جبلاً، يتسلّقهُ و يقع، ثمّ يتسلّقهُ ويقع ثانيةً، و لا يصلُ أبداً.
كان كلّما غاص في مشهد الركبة البيضاء يتلوّن بالأبيض، وكان ينحني في ما يشبه محاولة التقاط شيء ما عن الأرض، وفي غفلةٍ عن العيون، كان يسرق قبلةً للركبةِ في بياضها المهيب، ثمّ و عندما يصلُ الاشتعالُ ذروته، يصيرُ أبيضَ، يتلوّنُ بالأبيض.
نسرين كانت الأقدر على مسايرة تسلّقهِ ثمّ انحدارهِ و غرقهِ في الأبيض اللزج، في الأبيض الجميل كما كان يحلو له أن يسميه، ويلفظ الجيم بلهجةٍ مصريةٍ محببةٍ إلى قلبهِ. وكانت نسرين تسبقه الى الاشتعال، فهي أيضاً كانت تراقب المشهد وتستمتع به، حتى تصير الدنيا من حولهما بيضاء.
وكان المشهد يتكرر كلما خرجا في نزهتهما السرية إلى بساتين الأكي دنيا وغابات القصب على ضفاف النهر قرب بلدة جنسنايا في الضواحي القريبة من مدينة "صيدا"،

قرب نهر اتخذ من اسمه الدلالات الغريبة في أذهان الأصدقاء، نهر "جنسنايا" الذي كان بالنسبة إلى "حمزة" الأصولي الذي كان يشاركهم حفلات المجون تلك، لعنةً نازلةً من أعلى، من الجبال التي تطال السماء، لأن النهر محرض على الغوايات، باللحم واللحن كما كان يقول لصديقهم الآخر، "مخلص" الذي كان يخرج معهم ليعزف على عوده ألحاناً عذبةً تجاري روعة المكان وسحر طبيعته الخلابة.

بعد الانتهاء من شرب الويسكي، وأكل ما تيسّر من المكسّراتِ والجزر المنقوع بعصير الحامض والملح، وما جلبه الأصدقاء معهم من لحمٍ مشويٍّ وخضار طازجةٍ، كانا يقصدان الضفة الأخرى من النهر حيث تخفيهما قامات القصب الكثيف عن أعين الرفاق، ليرسما مراراً وتكراراً مشهد البياض الجميل.

تتمدّدُ على العشب، وينحني فوقها.

يدفنُ وجههُ بين نهديها، يضغط بيديه عليهما قابضاً على الحلمة اليمنى بأسنانه استعداداً لرضاعته منها، ثمّ يلتصق بها ليبدأ الحفّ، "النحت" كما كان يسميه، ينحتُ في ذاكرتها تمثالاً للرغبة فتصير له مريدةً وتابعة.

يزدادُ حفُّهُ تسارعاً فتزدادُ هي استجابةً له.

يسخنُ بالقبلات على امتداد وجهها وصدرها، يتصببانِ عرقاً، ترفعُ بيدها تنورتها وتومئ له بعينيها، دون أدنى كلمةٍ، دونما أدنى صوتٍ، بهمسٍ اعتادته هي في حضورهِ، كأنما هي في صلاة.

كأنما لهما في ذلك الطقس السرّي إشاراتٌ ورموزٌ اتفقا عليها قبلاً، ربما منذ التفاحةِ والأفعى، و آدم وحواء.

يظمأ، ترويه بريقها، بتعرّقها، وتشربُ دمه الأبيض، تغرقُ في الأبيض اللزج، يتحدانِ في انصهار شفتيهما، وولوجه فيها، والتحامه بها.

حلمةُ الثدي يكوّرها بشفتيه كما قطعة سكاكر، يرسم معالمها برأس لسانه، عضٌّ موجعٌ لذيذٌ، ثم ارتعاشه وارتجافةُ عظامها تحته.

ثمّ مارون الذي ينتشي بسكره، بعدما يشرب البيرة المكسيكية بالحامض والملح، ومعها عدة كؤوس من الويسكي ماركة "جوني والكر" لا غيرها، وبعد كلّ ذلك، ومع الرشفة الأخيرة من مُدام الكأس الأخير، يبتلع حبات مهدئ الأعصاب الذي كان به ينتصر على ذاته التي تأبى الاعتراف بفشله في الاستحواذ على قلب من كان يحب.

مارون يطلع عليهما كشمسٍ متطفلةٍ، تشهرهما، تكشف ارتجافهما برداً ونشوة.

مارون الوحيد بين الرفاق، يقفز بين القصب حتى يصل إليهما، ويجلس مستمتعاً بمراقبتهما وهما يغرقانِ في البياض اللذيذ.

--- 3 ---

يجلس اليوم وحيداً، كما في كل يوم.

لكن مجرد ذكر كلمة اليوم، يريحه، لأن في ذلك ترسيخاً لاعتقاده أنه هو من يبدأ أيامه، وينهيها، وهو يعلم قطعاً أنه ليس أكثر من مجرد واحدٍ، في المليارات الستة الذين يملؤون هذا العالم، بصراخهم، وهمسهم في يقظتهم ومنامهم، في حركته وسكونه، في ثباتهِ وتحولاته الكثيرة.

أجل، هو المخلوق المتحول الذي يشبه حرباء في أحيان كثيرة، بل يفوقها مهارة في القدرة على التأقلم مع المحيط، ولا ينتمي إلى أي محيط، بل يعيش في داخله عالمه المخيف الذي يحيا فيه الحذر من الواقع، وشغفه بالافتراض الذي يشكّل له عالماً آخر مختلفاً تماماً عن واقعه المأزوم.

- الوحدة القاتلة!! من قال إنها قاتلة؟؟.
- هي أسلوب عيشٍ راقٍ لا يعيشه إلا المترفون، والتافهون أيضاً.
- الوحدة هي أسلوب محاكاة ومعارضةٍ معاً، تشبه ذات واحدنا لأنها تريه أبعاده التي لا يكتشفها إلا في وحدته واختلائه بنفسه.

لا يكره الوحدة، ولا يحبها أيضاً.

إنما هي العادات اليومية الرتيبة التي فُرضت عليه فرضاً في طقوس حياته الإفريقية، ولم يكن راغباً فيها، وهو الذي لم يكن راغباً في أي شيءٍ في هذه الحياة أصلاً، فلا هو اختار ولادته، ولا عمله، ولن يختار بالتأكيد موته الذي كان يعتقد اعتقاداً راسخاً سيكون أكثر غرابةً من حياته نفسها.

ينتظرها، ينتظر اتصالها الهاتفي به، أو حضورها عبر شاشة الكمبيوتر أمامه.
ينتظر طويلاً، فلا يسمع رنة هاتف، أو إيقاعاً منبهاً بقدوم رسالةٍ قصيرةٍ منها، أو إيقاع المسنجر حتى، وحتى الرسالة الإلكترونية الذي اعتادت أن ترسلها إلى صندوق بريده في حال أنها لم تستطع أن تلتزم بموعدها معه، حتى هذه الرسالة الإلكترونية غابت عن ناظريه، وكأنها تتعمد تعذيبه وحرق أعصابه التي ذابت أصلاً منذ وطئت قدماه أرض القارة السمراء الملتهبة كداخله شوقاً وعشقاً.
يسأل نفسه أحياناً: "هل تحبهُ حقاً ؟"، و إن كانت تحبه فلماذا تغيب عنه؟ لماذا لا تفرحهُ بحضورها كلّ لحظة؟.
هو يعلم أن بينهما مسافة آلاف الأميال التي تفصله عنها، لكنه يؤمن بأن الحب أقوى من المسافة، و بأنها أقوى من أن تفصلها عنه مسافة أو جغرافيا.
لو كانت تحبه فعلاً، لكانت تجسدت أمامه حين ناداها، لكانت تنزّلت من السماء إليه حين ناجاها، أوليست هي معجزة عمره؟".

- لماذا تغيب المعجزات حين نحتاجها؟".
- "لماذا لا تحضر حين أصلي للسماء بأن تسرقها من أهلها وناسها وبلادها فتأتي بها إليّ على جناح غيمة أو على بساط ريح؟، لماذا لا تثبتُ لي أن حبنا أقوى و أقدر؟؟؟".

ألف لماذا تجول في خاطره ولا تجد لها جواباً مقنعاً، لكنه لا يقوى إلا على الانتظار، وكأن صبره صار مرض العصر، و صار هو أيوب زمانه.

- "الهاتف المجنون، الهاتف المريض، هل هو متواطئ أيضاً؟ ولماذا الآن تنشغل الخطوط، و تتوقف الشبكة عن أدائها المتفوق قبلاً، لماذا؟".

لماذا لا يتسع الهاتف لملايين قبلاته الحارة وأطنان أشواقه الملتهبة؟ ولماذا لا يتسع لإصبع واحدٍ يمدّهُ إليها، أو عين فقط، كي يراها؟ لماذا هذا الانتقال الحراري العظيم لا يبعث فيه إلا جليداً؟.

- "مخترع الهاتف، تبّاً لك".

وأخيراً يرن الهاتف، ثم حين تجيب يتوقف الكلام.

هو يصمت، أما هي فتنصت علّها تسمع صمته.

نعم، للصمت صوت.

للصوت لون، واللون هو الإشراق، الأصفر الذهبي، كالشمس.

تشرق عبر الهاتف، تسطع، ثم يقف مراقباً مرورها عبر السماعة، داخلة على سمعه، مقتحمة عليه صمته.

تسأله: "لم لا تتكلم؟".

هي تعلم أنه في تلك اللحظة ينصت إليها.

يستمع إلى وقع كلماتها في مرورهنّ عبر أذنه فقلبه فاستقرارهن فيه دفئاً وحياة لهذا الذي كان حتى الأمس القريب قبل حضورها، مضخة للدم وسوائل أخرى.

نعم هو يعشق صوتها.

هي في المقلب الثاني من الكرة الأرضية، تفصل بينهما آلاف الأميال، لكنّه كلّما اتصلت به أحسها قريبة إليه، كما اعتادها طوال الصيف الماضي في المقهى الزجاجي الذي التقاها فيه لأول مرة.

تقول له: "يا مجنون، كم أحبك!".

اتصلت به لتخبره أنها قد عادت من نزهةٍ مسائيةٍ مع صديقةٍ لها.

تفصّلُ له مجريات يومها، وساعات التسوّق المسائية في "بيروت" المدينة التي تستيقظ ليلاً ولا تنام أبداً.

تخبره أنها متعبةٌ جدّاً، لذا تودّ التحرّر منه هذا المساء.

تهمس عبر الهاتف بصوتٍ يزيده إغراءً هدوءهُ الساحر وحيويته التي تأسر القلب.

– " عن جد، جسمي ارتخى، ولا أستطيع مقاومة نداء سريري، أرجوك".

يغرق في التفكير، يغرق في الوحدة.

الوحدة القاتلة التي يعدّها مساحة شغفٍ وممارسة عشقٍ مع الصور المستحضرة من الذاكرة تواً، بعيداً عن واقعٍ يعلن غربته فيه، ويقابل شوقه وشغفه بتحجر المشاعر التي للجدران الخرساء وللنوافذ المقفلة بالشريط الشائك.

هذه المشاعر التي تستعر أكثر في غربتهِ فيفقد القدرة على التعبير لأنه يفقد لغته.

أحيانا يُصاب بما يشبه الهذيان، يكلّمُ نفسه، أو يكلّم خادمتهُ الإفريقية بلغتهِ العربية، ويسترسل في الحديث مع الخادمة، والمسكينة تومئ برأسها إيجاباً، دون أن تفهم شيئاً مما يقوله.

بقي على عودته إلى لبنان أيام قليلة، وها هي تتصل به كل ليلة.

موعد اتصالها به في الليل فقط.

وكأنهما يدركان كل الظروف التي تمنعهما من أن يعلنا حبّهما وضح النهار.

تنتظر الليل كي تكون له وحده، وينتظر الليل كي يكون لها وحدها، كي ينسلها عبر سلك الهاتف إليه، ليكون نومه هنيئاً وليله قصيراً كما ليل عمر بن أبي ربيعة، فيتمتعان "بلهو غير معجل".

هو لا يحب الليل، فهو في قارة الليل.

الليل الأسود، الليل الأسود الكالح، المغطى بطبقةٍ من السواد المغطى بالسواد.

حتى الشجر هنا أسود، والعصافير سوداء كغربان، حتى الحجر والبشر، هو عالم السواد المطبق، السواد الداكن البشرة والقلب.

لا تعرف عيناه النوم، بات يعد الساعات قبل أوان السفر.

اثنتان و سبعون ساعة تمرُّ ويحين موعد سفره، يرتجف كلّما فكّر بذلك.

- "كيف سيكون يومي الأخير في نيجيريا ؟ كيف ستكون رحلتي الأخيرة من "لاغوس" عائداً إلى لبنان؟ كيف سأودّع "كيمي" السمراء، الأميرة الإفريقية الشوكولا؟ كيف سأودّع عالم الأساطير والحكايا التي كانت تقصها عليّ كلما شاركتني السرير لأنام؟ وكيف سأعود إلى عالم تركته قبل عشر من السنين؟".

يرن الهاتف من جديد.

الساعة تقارب الثانية صباحاً.

يصله همسها المجبول بالنعاس، صوتها الأنثوي الدافئ، تقول له: "استيقظتُ وأنا أسمع صوتاً غير موجود، كأنّه الصدى، ما هذا ؟ ".

تفاجئهُ، يرتعد لهول صدمتهِ، أجل كان يناجيها قبل قليل، كان يفكر بصوتٍ عالٍ، ويكاد يصرخ طالباً منها الاقتراب، "اقتربي، اقتربي، لا تخافي حبيبتي. كم أحبّك ! اقتربي منّي ولن أتركك بعد اليوم أبداً. أعدكِ، لن أسافر بعد اليوم".

تتحدّث بصوتٍ يزداد صخباً: "وبمَ تفكّرُ؟ أخبرني، و لا تقلقني، هل ذاك الصدى صوتك؟، لماذا تحاول إخافتي؟".

ينصت إلى صوتها الملائكي، الذي يزداد ارتفاعاً ووضوحاً: "أودّ لو أتسلل عبر ذبذبات الاتصال لأكون قربك، لأنام إلى جانبك، أشتاق إليك عزيزي، أميري، حبيبي، ملهمي، شاعري، قنديل أفكاري، صلاتي و نسكي، آهِ كم أحبّكَ! ".

يردُّ بهمسهِ المعتاد:" أعشقكِ، بل أموت عشقاً".

– "يا أجملَ من قمر، وأشرقَ من شمس، وأحنَّ من أمّ، وأرقَّ من زهرة، وأنعمَ من حرير، و أبرأَ من طفلٍ، و أقدسَ من صلاة، وأشهى من عسل، وأندرَ من ماس".

يعدّ كوب الشاي بينما يواصل الحديث معها على الهاتف، فالنوم غادر عينيه إلى غير رجعةٍ.

يستمع إلى أنفاسها الملتهبة، ويصمت.

يهمسُ ثانيةً: " أشربُ الشايَ حبيبتي، ليتكِ في الكوب ليصيرَ أكثر حلاوةً، يسكرني خمرُ شفتيكِ حبيبتي، أحبُّكِ".

تجيبهُ: " أشعر بجنونكَ حبيبي، يا قطعة سكر تتدحرج فوق جسدي الذي أباحه حبّك. أكملْ حديثك العذب حبيبي، نصنعُ عسلاً كثيراً ونتحدُ في جسدٍ واحدٍ وروحين".

– "آهِ، كم أشتاق إليك!، إشربْ الشاي بالهنا يا قمري، سكّرٌ يتجمّع فوق شفتيكَ، أقبّلُ السكر وأصنع لكَ عسلاً".

يحارُ جواباً، يتلعثمُ بالكلام، يلحسُ شفتيهِ وكأنّه يتتبعُ أثرَ كلامها على شفتيه، أثرَ السّكّر الذي تجمّع هناك ليكون لقبلتها طعمٌ ألذّ وأشهى.

يتمتم بصمتٍ، بهمس يشبه الصوت، بهمس لا صوت له.

– "حبيبتي، رغم المسافات التي تفصل بيننا، رغم الخيبات التي نحتت لي شكلاً وأعطتني اسماً، رسمت لي وجهاً، رغم النسوة اللواتي دسن قلبي قبلاً، دنّسن سريري قبلاً، رغم ما ضاع من عمرٍ ضاع دهراً وذهب هدراً، أحبكِ، أحبكِ، أحبكِ كما لم أحبّ أحداً قبلاً، أحبكِ بل أفيض حبّاً".

ثم يكمل، في ما يشبه ترتيلة صلاة في طقس عبادةٍ سرّية.

- "أنتِ ملاكي وسيدتي التي أعلمها العشق، أتطهر بها من كل خطاياي الماضية، و خطاياي الآتية. أنت نشوة الحضور الذي انتظرت طويلاً كي يحضرني، كي أحس به ... وها أنتِ".

ثم يقول، وكأنّه يصدر أمراً:

- " نامي الآن، تصبحين على ألف خيرٍ، أحبّكِ يا ملاكي، أحبّكِ كثيراً ".

يقفلُ سمّاعة الهاتفِ، يفتح أقفالَ حقيبتهِ، يوضّبُ الحقيبةَ وكأنّه يستبقُ موعدَ السّفر ولم يبق إلا قليل مشتريات وهدايا وتذكارات يشتريها غداً".

النعاسُ يغلبُ جفنيهِ، فيغمضهما على حلم اللقاء القريب، و يغرق في نوم عميق.

--- 4 ---

بين الحلم واليقظة، في برزخ النوم الهادئ الهانئ، الممتد على مشارف الصبح، أو هكذا خُيّلَ إليهِ، ويتمطى بجسدهِ المتعب ولم ينلْ قسطاً كافياً من النوم.

يزعجه شعاع الشمس الساقط عليه توّاً من النافذة.

وإذ تعتاد عيناه نصف المغمضتين على الضوء، يحول بينه وبين الضوء ظل.

ليس ظلاً لوجه، بل هو وجه لظلٍّ.

وكلُّ الوجوه الإفريقية السمراء تتشابه في كونها الظلَّ ولا وجه. إنها لعبة اللون الأسود الغريب في تجلّيه، في ممارسته لعبة الظلال بخفةٍ و براعةٍ قلّ مثيلهما في عالم الألوان.

يفتح عينيه، يفركهما بيديه، يحدّق في وجه الظلّ، إنها "كيمي" تجلس عند حافة سريره، تراقبه في نومه الهادئ كطفل.

لماذا "كيمي" الآن؟، لماذا "شمس" الليلة الماضية؟ وبينهما "نسرين" و"أم أحمد" وكثيرات لم يفارقن ذاكرته في اليقظة والحلم.

– "لماذا الآن؟ مَن أعلمها بسفري ؟ مَن أدخلها غرفة نومي؟ ألم أخبرها أنّني منشغل طوال الأسبوع بعمل خارج المدينة؟".

كان وعدها بنزهة في عطلة نهاية الأسبوع إلى منتجع "النخلات الحالمات" على شاطئ المحيط الأطلسي غرب نيجيريا، على الحدود مع جمهورية " بنين "، حيث اعتادا أن يقضيا أجمل الأوقات.

أجمل الأوقات، ربما، يغيب في ذاكرته ليستعيد في أقل من ثانية حلماً امتد به لأكثر من ثلاث سنوات، كان فيها يعشق "كيمي" بجنون، ويدمنها كشوكولاته سوداء، كالبدينين الذين يقرأ عنهم ويرى صورهم في مجلات الصحة والرشاقة.

كان يعشقها، يعيش معها اللغة الإفريقية في ألذ لحظات الخطاب بها، حين هو مستمع فقط، ومستمتع بها.

–"موني في ري بوبو"، ينظر في عينيها مندهشاً فتعيد القول بالإنكليزية هذه المرة، ويردد في نفسه كلماتها "أنا أحبك كثيراً".

يغرقان أكثر في اللزوجة والعرق، يغمضان الكون على عيونهما المفتوحة، عينيه اللتين تصيران سوداوين إذ تتلونان بجسد "كيمي"، وكيمي تصرخ "مون غبادون إي غووني"، "أحب الطريقة التي تُدخلهُ فيّ بها، أنا استمتع كثيراً معك".

– "مو في سي، ما شي لو، ما دورو"، "أنا أريدك، أكملْ، أكملْ، لا تتوقفْ".

وينزفان بعدها دمهما الأبيض، يتلونان حتى يعيشا اللحظة الرمادية الأبدية اللذة، لحظة الضباب الدافئ، في قمة هذيانهما واندماجهما معاً كواحدٍ إنساني.

يومها كان ينتقم بالأسود من ماضيه، ينتقم من كل أبيض.

ينتقم من الوجوه التي عرفها قبلاً، من الأسماء و الألوان والأماكن، الأماكن التي أقسم ألا يعود إليها أبداً.

هي هنا الآن، عند حافة السرير، جالسة بلا حراك.

تراقبه فقط، بعينيها المشعتين كعيني قط، كأنها محارب من قبائل " اليوروبا " التي تنتمي إليها. أو كأنها تمثال إله الحرب عند قبيلتها ، الإله " أوغون ".

يحدّق فيها، يكتشف دمعاً يسيل على خديها، دمعاً غزيراً لا يتوقف، دمعاً يشبه المطر، المطر الذي يروي الغابات الاستوائية في غرب إفريقيا، على امتداد ساحل المحيط الأطلسي.

يصمتُ، يعلمُ أنّه لا يستطيع أن يستفزها ولو بكلمة، يعلم كيف يتصرف الأفارقة في مثل تلك الحالة، يدرك أنها تنقلب إلى نمرة شرسة متوحشة إذا حاول في تلك اللحظة أن يدّعي براءةً أو يختلق كذبة، يعلم أنّ عليه أن يحترم صمتها، احترام دمعها، ولطالما عبّر الإفريقي بدمعه عن كل عذابات البشرية طوال قرون من القهر والاستغلال، واستعباد الإنسان لأخيه الإنسان.

يمسك بيدها، ويقرّبها من خدّهِ، يقبّلها و يبتسم، بل يتظاهر بالابتسام، لا يقوى على النظر إليها، يشدها إليه فلا تتحرك، يضع رأسه في حضنها و يصمت.

تداعب شعر رأسه بيديها، وتتحدث كمن يروي قصة، كمن يحدّث نفسه، وكلما حاول التعليق، وضعت يدها على فمه لتكمل هي الحديث.

- " أريدك أن تحمل معك هذه الأسطورة الأخيرة التي لم أروها لك قبلاً، تحكي الأسطورة أن الإله "أوغون" كان ذاهباً إلى الحرب ضد قبيلة "الإجبو"، وكان من عادته أن يذهب إلى الحرب وحده، أما أفراد قبيلته فما كان عليهم سوى أن يحضّروا الأضاحي تكريماً له، و تقديراً لقوته وجبروته، واحتفالاً بالانتصار العظيم الذي كان حليفه دائماً.
- تروي الأسطورة أن أفراد القبيلة أثناء غياب الإله "أوغون" في معركته ضد قبائل الأعداء من "الإجبو" أو "الهاوسا" أو "الفولاني" و غيرها من القبائل التي تسكن نيجيريا، كانوا ينشغلون بإعداد الموائد الشهية للإله "أوغون"، كما كانوا يختارون أجمل عذارى القبيلة لأجله، فيقوم بفضّ بكارتهنّ ويتزوجهنّ قبل أن يُوزّعنَ على محاربيه الأشداء.
- كذلك كانت النسوة ينشغلن بإعداد النبيذ والخمور بكميات كبيرةٍ، لأنّ الإله "أوغون" كان يسرف في الشراب، ويشربُ حتى يثمل.
- وفي معركةٍ جرت عند دلتا نهر النيجر، حارب الإله "أوغون" ببسالةٍ وشجاعةٍ، وكان يتغلبُ على كل من واجهه من محاربي القبائل الأخرى الأشداء، وطالت الحرب سبع ليالٍ، استطاع خلالها الإله "أوغون" أن يتغلب على ألف ألف محارب من الأعداء.
- تروي الأسطورة، تابعت "كيمي"، أن القبائل اجتمعت عند الساحرة الحكيمة "إنكوزي" صاحبة المعرفة، وسألتها رأيها في كيفية الانتصار على الإله "أوغون"، فكان منها أن اختارت أجمل عذراء من بنات قبيلتها، وأعطتها ثمرة "أبولومو" محشوة بالسّم، وطلبت منها الذهاب لمقابلة الإله "أوغون".

- وهناك عند دلتا نهر النيجر، التقى الإله "أوغون" بالعذراء "إيميكا"، عذراء قبيلة الإجبو، وأغرته بممارسة الجنس معها.
- وعندما كان يقبّلها بشهوة لا تضاهيها شهوة، ضغطت العذراء "إيميكا" بأسنانها على ثمرة "الأبولومو" المسمومة المخبوءة في فمها، فتجرعا السّمّ وماتا معاً.

استمع إليها بدهشة وهي تروي له القصة.

إنها المرة الأولى التي تروي له فيها قصة الإله "أوغون"، وكانت قبلاً أهدته تمثالاً لهذا الإله صاحب الأيدي الأربع الحاملة أنواعاً أربعة من الأسلحة، وصاحب الكرش المملوء، و العضو الذكري الضخم، الممتد من أعلى حوضه، حتى أسفل ركبتيه.

و كانت قبلاً قد شرحت له دلالات كون هذا الإله إلهاً للجنس والحرب واللذة الكامنة في الطعام و الشراب، إلا أنها لم تقص عليه يوماً حكاية موته.

يستمع إليها، تتحدث وكأنها تخاطب نفسها، تستطرد في الحديث:

- "عندما مات الإله "أوغون" بكته قبائل "اليوروبا" مئة سنة، كما بكته الأرض و الأشجار والكائنات، إلا أن الآلهة زادته تعظيماً بأن أمرت الغيوم بأن تبكي عليه ألف سنة أخرى، وها هي الغيوم تبكيه طوال نصف عام".
- "في إفريقيا وحدها دون سواها من القارات، تبكي الغيوم فصلاً ممتداً على ستة من الأشهر، في إفريقيا وحدها فصلان في السنة، واحد للجفاف وآخر للمطر".

تنظر إليه، محدّقة في عينيه هذه المرّة، هامسة بصوت مكسور: " أنت الابيض الذي أحببت، سأبكيك كما بكت قبيلتي إلهها "أوغون"، ولو كان باستطاعتي لتقاسمتُ وإيّاكَ ثمرة "أبولومو" مسمومةً.

أدارت ظهرها إليه، ثمّ غادرت الغرفة.

و بقي هناك وحيداً، يفرك عينيه بيديه، كمن يرجو أن يصحو من كابوس مخيفٍ راوده، وأنّى له أن يصحو !!!.

زنوجتي ليست حَجَراً
لأنّ صممها يتعالى
فوق اصطخاب النهار
زنوجتي ليست كيس مياه ميّتة
في العين الميتة للأرض
زنوجتي ليست برجاً ولا كاتدرائية
ما من بقعة في هذا العالم
إلا وتحمل بصمة أصابعي
وآثار أقدامي مطبوعة
على ظهور ناطحات السحاب

مثلما تتبدّى نعومتي
في لمعان الأحجار الكريمة

إيميه سيزير

الفصل الثالث
نانا الحالمة

--- 1 ---

- "أنا الأبيض الحزين، وهو الإفريقي الذي يضحك بملء روحه، لا يضاهيه بشريٌّ في الكون كلّه، يمتلك هو وحده سرّ الضحك الأزلي، وربما توارثه عن أجداده وآبائه.
- هذا الإفريقي الذي يرقص ويضحك، يرقص ويضحك ويأكل، يرقص ويضحك وينام، يرقص ويضحك ويجوع، يرقص ويضحك ويبكي، كأن في ملامح وجهه ثباتَ الضحك وتحولات الحياة".

يمشي وسط السوق الشعبي في حي "يابا" الذي يسكنه في العاصمة النيجيرية لاغوس، السوق الشعبي الذي تناثرت فيه أشكال التجارة البدائية كبقع لونية على جدار أبيض، هناك فقط، وسط جو المقايضة البدائية والمشاع وروائح السمك المجفف ودماء الذبائح الطازجة التي تسيل في خطوط ترسم للمارة ممشاهم، يستعيد أفكاره الماركسية التي آمن بها في شبابه، قبل أن يصير رأسمالي النظرة في أمور الربح والخسارة في تجارة الحياة التي اعتنقها ومارسها متأثراً بالعبيد البيض، منذ اللحظة الأولى لوصوله إلى لاغوس.

يجد لذةً في التسوق البدائي الذي يشبه المقايضة، حيث البائعون لا يتقنون ضروب الاحتيال والإقناع الذي يغش، فإما أن تشتري وبالثمن الذي تريد، وإما أن ترفض الشراء ولو عرض البائع عليك بضاعته بدون ثمن، مقابل ابتسامةٍ "بيضاء" من هذا "الأوغا" الأبيض الذي هو أنت.

هذه اللفظة "الأوغا" التي خاطبه بها عديدون منذ وصوله لاغوس، وأدرك متأخراً أن معناها "السيد" أو "الإله"، ينادي بها الأسود مستعمره الأبيض قديماً، والمستثمر الأبيض حديثاً، وهذا ما جعله رافضاً سماع الكلمة، ومغتاظاً من الذين ينادونه بها، فالنداء بهذا

اللقب يحرجه، إذ يلازمه شعور لديه بالتميّز العرقي واللوني، هو الأبيض "الأوغا"، وهم الأفارقة "العبيد"، يكتشف مع النداء كم هو أصغر، لا تواضعاً، بل واقعاً، فالمفردة التي كانت يوماً تحمل دلالة التبجيل والتقديس صارت اليوم سبةً وتهمة، وهو في كل ذلك لا ذنب له سوى أنه وقع في خطأ تاريخيٍّ، أحضره إلى إفريقيا يوم انتهى الغربي والأوروبي من نهب ثرواتها، وامتصاص دماء شعوبها، وهو بين هؤلاء الأفارقة الأسياد في سوقهم الشعبي صغير، فقير، مهما وضع في جيوبه من أموال، إنسان بلا هوية، يعيد اكتشاف ذاته بين هؤلاء الذين تبرعوا له بدفء قلوبهم دونما مقابل، في عالم الرأسمالية البيضاء الجشعة.

الأصوات تلاحقه في زحمة السوق، "أوغا" كم تدفع مقابل كيلوغرام من البامياء؟، "أوغا" كم تدفع ثمناً للسوار العاج؟، "أوغا" بكم تشتري هذا العقد "الملاكايت" لحبيبتك؟، "أوغا" بكم تأخذ كيلوغرامين من "البلانتين"؟.

– آه، البلانتين الذي أكله مشوياً مع الفستق، "البلانتين" الموز المشوي اللذيذ، عدة الإفريقي في نيجيريا كفافَ يومه، قرنٌ واحدٌ من الموز المشوي مع حفنة من الفستق، عدة هذا المسكين كي يكمل يومه حتى نومه، دونما تذمر أو احتجاج، آه، أيها "العبيد البيض"، ألم تتعلموا شيئاً من دروس البلانتين المشوي؟.

تساؤلات عديدة تجتاح مساحات تفكيره المتداخلة تلك اللحظة من اليوم الأخير قبل السفر، يكتشف في تجواله في السوق الشعبي بين الأكواخ الخشبية التي يسمونها متاجر، ويبذلون جهداً كبيراً في جعلها لائقةً بهذا الاسم، عبر ملئها بما أمكن من المنتوجات المستوردة من أقاصي الشرق والغرب.

يكتشف مقدار هذه المحبة التي يحملها الإفريقي لكل "آخر" بغض النظر عن لونه وعرقه، فالكل في إفريقيا في نظر الأفارقة بشرٌ طالما أنهم يكحّلون أعينهم بزرقة السماء ذاتها، ويغتسلون بالمطر ذاته، المطر الذي لا يتوقف عن الانهمار في قارةٍ سبقت المسيح بملايين

الأعوام في طقوس عمادة الجسد وغسله بالماء، ولكنها لم تستفد من تعاليمه في التسامح والمحبة، فدفعت الثمن غالياً من أبنائها الأسرى عبيداً مرحّلين قسراً إلى العالم الجديد، وعلى أيدي أبناء الكنيسة المسيحية دون غيرها.

يجول بين الأكواخ ويكتشف، كما لو أنها المرة الأولى التي يزور فيها السوق الشعبي الذي اعتاد زيارته مرتين أسبوعياً على الأقل قبلاً، يجول محاولاً أن يسرق ذكرياتٍ أخيرةً من جولته تلك، قبل سفره ذي الاتجاه الواحد والوجهة الواحدة، إلى لبنان.

يحاول أن يحتفظ بما يمكنه من دفء هذا المكان الإفريقي، أن يسرق الابتسامات البيضاء للأفارقة السود، أن يستعير منهم احتفاليتهم بالحياة ليعود بها إلى لبنان، كي يليق هو بحبيبته، وكي تتسع حياته لكمّ الفرح العظيم الذي وعدها به.

يشتري بعض القطع الفنية اليدوية الصنع، من الخشب والعاج وحجارة "الملاكايت"، ويخص حبيبته بعقد منها، كما يخص بيت المستقبل الذي سيجمعهما بمنحوتةٍ خشبية رائعة من خشب المازونيا باللونين البُني والأسود معاً، منحوتةٍ تمثّل تضامن أفراد العائلة في انحناء الأب على الأم، وانحنائهما معاً في حركة التكور والاحتضان، على الأبناء، بما يشبه التكوّر الجنيني في أجمل تجلياته في التجريد والرمز اللذين برع فيهما الفنانون الأفارقة قبل أن تُعرف مذاهب التجريد والرمزية في الفنون.

يحمل مشترياته القليلة، متجهاً إلى سيارته التي أوقفها خارج السوق، حيث أشار عليه أحد "فتوة" السوق الشعبي الأخطر بين أسواق لاغوس، بالنسبة إلى الزائرين من البيض، لكنّ إلحاح أحد الفتية من الحمّالين الأطفال يدفعه إلى الوقوف في مكانه ريثما يُخرج من جيبه قطعةً نقديةً يضعها في كفّ الطفل الذي لم يبلغ الثانية عشرة من العمر بعد، وهو هكذا اعتاد على معاملة هؤلاء الأفارقة البسطاء، كباراً وصغاراً، أو أصرّ على معاملتهم هذه المعاملة حتى اللحظة الأخيرة التي يقضيها فوق أرضهم التي لم تعطه ولم تعطهم إلا

الحب والخير، وإن مزجت حبّها هذا بالملاريا والنسيم المغبر القادم من الشمال حيث الصحراء الإفريقية الكبرى كلّ "هرمضان"، موسم التغير المناخي والانقلاب الحاد في طبيعة الطقس حيث تنتشر أمراض الأنفلونزا والأوبئة التي لا حصر لها.

يحمل مشترياته، ويوضب ذكرياته الأخيرة عن المكان، ثم ينصرف بهدوء، وكأنه ينسلّ من المشهد الذي عذّبه لأكثر من عشر سنين، قضاها مقارباً ومقارناً بين عالمين ووجودين وشكلين نقيضين من أشكال الحياة الإنسانية المخاتلة والمخادعة في مبادئها وكذبها الجاد على ذاتها.

يقود سيارته عائداً إلى بيته، ماراً بالأحياء الفقيرة التي تحيط بلاغوس كسوار في المعصم، وتكاد تصير هي الأصل، لتبقى الأحياء القليلة الراقية التي يسكنها الأغنياء كما لو أنها نزلت من الفضاء وأقيمت هناك، بين أحياء الصفيح والأكواخ الخشبية وتلال النفايات المتراكمة.

يسابقه سائقو حافلات الركاب الصفراء الصغيرة لظنهم أنه يحاول تجاوزهم، "هي طبيعة هذه البيئة التي لا يستطيع بعض أبنائها الخروج من عقدة حفرها المستعمر الأوروبي في ذاكرتهم الجمعية، بل هي عقلية الإفريقي الطيب الذي يقود السيارة كمن امتطى نمراً أو جملاً مهتاجاً في درب القوافل عبر مفازات الصحارى الشاسعة.

يقود مستذكراً آلاف المشاهد التي احتفظت بها ذاكرته منذ قدومه إلى المدينة الإفريقية المرمية على ساحل الأطلسي غرب إفريقيا، السيارات ذاتها تمر به مسرعة، أفخم السيارات لأفقر شعب، ففي المدينة قلة قليلة متخمةٌ ثرية، وأغلبية تعاني الموت اليوميّ لأمراض انقرضت في قارات العالم الأخرى، أغلبية تعيش الفقر بابشع صور الحرمان والتعاسة، وفي لاغوس تحديداً، لقاء جشع "العبيد البيض" بمصالح الفئة الرأسمالية

الاحتكارية الفاسدة من السود في اتحاد عبودية المال والسلطة كاستثناء لا ينظر الفرق في اللون والعرق.

وفي المدينة ذات العشرين مليون نسمة، وحده "هو الذي رأى"، كما جلجامش في الملحمة، رأى الاتحاد الحقيقي حول رغيف واحد واشتراكية لقمة، في بناء أولي لمجتمع مشاعية، لا تعرف ملكية فردية، أو نزعات جشع تحطم الذات الإنسانية وتبقيها أسيرة رغبة امتلاك ما قسمه الله لبني البشر مجتمعين لا أفراداً، ودونما تمييز في العرق واللون والطبقة الاجتماعية.

--- 2 ---

هي الليلة الأخيرة يقضيها بعيداً عنها، عن أمّهِ، عن ابنته، عن مارون الذي يحبه، حتى الأصدقاء الذين خاصمهم قبلاً صاروا أجمل في نظره، صاروا وجوهاً ما لا تحمله على الضغينة، بل لا تستحق إلا الفرح بها، كما كل الاشياء الأخرى عندما الحب.

هي الليلة الأخيرة، و الاتصال الليلي الأخير يأتيه منها، يجري صوتها دافقاً كما اعتاد سماعه، كلحنِ "نانا الحالمة" أو عزف آلة السيتار الهندي الشجي، أو كعزف ناي منفردٍ متفردٍ في حزنه وعميق جراحه.

هو يستمع إلى صوتها كما تعود أن يسمع الناي او السيتار، ينصهر في ذات الموسيقى فيصير آلة لعزفها ووتراً جريحاً.

قال لها: " قصي عليّ قصة روعتكِ يا ملاك العسل واللوز والسكر".

قالت: " وأنتَ قُصَّ عليّ قبلاً قصة جنونك، عشقكَ المجنون، وجعكَ وشِعركَ".

سكتَ عن الكلام، فهو كالعادة يصمت كلما بدأت تهمس، رغم المسافات التي تفصل بينهما، يستطيع أن يشعر همسها، يتحولُ همسها يداً تداعب شعره، تشدّه إليها، تحضنه بقوة، تلملمه بعدما بعثرته، تلامس خدّه، شفتيه، صدرهُ، وتنثر على ما تلامسه قبلاتها الملتهبة.

– "ربّاه ما أروعها في الهمس! هي ربة الهمس، ملاكُ النور، عسلٌ يشعّ بالنور"، يلعقُ العسلَ ولا يذوب، يلعقُ يعلقُ ، يلعقُ عسلَ أصابعها وهو يترقرق على شفتيه، يذوب كما شمع عسل النحل، وحين صباح غدٍ، يوم عودته الى الديار، هو الطائر الحزين المكسور الجانحين، يقابلُ الوجوه السمراء بابتسامتها العالقة على شفتيه منذ ليلة أمس، منذ الاتصال الأخير.

لولاها تلك الابتسامة التي أودعته إياها قبل نومه، لما استطاع أن يتحمل الصدمة التي تفاجأ بها صباحاً، لقد اتصل به وكيل سفره ليخبره أن حجزه، كما حجز عدد كبير من المسافرين، قد ألغي بسبب عدم قدرة الطائرات المتوفرة على استيعاب العدد الكبير من المسافرين العائدين الى بلادهم مع انتهاء السنة وحلول الأعياد.

حاول أن يتصل بها، لكن الهاتف ذاب بين يديه.

حاول أن يرسل اليها رسالة عبر البريد الإلكتروني، فما وجد إلا حمامة زاجلة مكسورة الجانح.

حاول أن يسمعها صوت ارتطام أحلامه بالمفاجأة، بالمسافة التي تفصلهما، أن يُسمعها صوت انكسار دمعه على أوراقه المريضة بالشوق اليها.
حاول الانتحار، فما وجد في المسدس غير رصاصةٍ من حبٍّ أطلقها على قلبه فازداد امتلاءً بها و عشقاً لها وشوقاً إلى رؤيتها.

--- 3 ---

الوجوه الضاحكة، الأسود الضاحك، العابق برائحة تشبه الأرض، كأنه الوحيد بين البشر ابن الأرض، أما البقية منهم فينتسبون، منهم من ينتسب إلى السماء، ومنهم من ينتسب إلى من لا يشبهه.
الوجوه الإفريقية المستديرة حول ابتسامة، ابتسامة للفرح، ابتسامة للحزن، وابتسامة لما بين الفرح والحزن، ابتسامة كأنها سيفٌ يشهره الإفريقيُّ في وجه الآخر أياً كان، فمن كان صديقاً كان السيف فرحاً يسلّطه الإفريقيُّ نحو قلبه فيحيا، ومن كان غير ذلك فإن لهذه الابتسامة فعلَ القتل فيه، تصيبه في قلبه فتقتله.
في الطريق إلى المطار البعيد عن "لاغوس"، إلى الغرب منها، في جمهورية "بنين" المجاورة، "مطار "كوتونو"، مرّ بالأحياء الفقيرة ما بين "يابا" و"أوشودي"، ذاك السوق الممتلئ بمليون من الرؤوس السوداء التي تشويها أشعة الشمس الحارقة، فتغرق في العرق الذي يلمع تحت الوهج كحبات ماس، "من قال إن الأسود ليس ماسياً هو أيضاً؟".

زحمة سير خانقة، اعتادها في الأيام العادية، لكنها صارت أثقل على قلبه وأشد وطأة وهو يجهز نفسه للسفر إلى لبنان حيث الحبيبة "شمس"، زحمة وجوه عشر سنين قضاها في "لاغوس"، السيارات التي يكاد بعضها يقفز فوق بعضها الآخر، الحافلات الصفراء التي يخشاها أصحاب السيارات الخاصة وسائقو سيارات الأجرة ويخافون جنون سائقيها، الحافلات الصفراء المخصصة لنقل البشر والأمتعة والمواشي حتى، وفي نيجيريا أيُّ شيء يصلح لأي شيء.

يراقب الأحياء الفقيرة بعين مودّعة، الأحياء التي تحتل أرصفة الشوارع الترابية، المترامية على طرفي الطريق الذي يسلكه إلى حدود الجمهورية الصغيرة المجاورة، الأحياء التي تكاد لا تترك للطريق إلا مساحة تتسع لسيارةٍ واحدةٍ، بأبنية متهالكةٍ بُني القديم منها منذ ما قبل انتهاء الاستعمار البريطاني للبلاد أواخر الخمسينات، الأبنية التي تفغر فاهاً عن أطفالٍ جياع ونسوة نصف عاريات، إلا من ورقات توتٍ تركها الفقرُ لهنّ كي لا يخدشنَ حياء هذا الأبيض، أو تنكشف له جريمة استعباده الإفريقيّ الطيب، واسترقاقه إياه لقرونٍ عدة.

ما بين بيته في "يابا"، ومطار "كوتونو" كيلومترات قليلة، إلا أنها مساحةٌ شاسعةٌ لذاكرةٍ أمضى عشراً من السنين يخزّنها، وها هو الآن يكاد يتقيؤها بكثير رغبة في أن ينسى، أجل، أن ينسى هذه السنوات جميعاً، وكأنها لم تكن، أن يعود كما ولدته أمّه، أبيضَ نقياً.

يخشى أن يكون في هذه الفكرة التي تراوده عن النسيان والولادة من جديد ميلٌ عنصريٌّ ما، فيتراجع عنها فوراً، ويحاول أن يهرب منها إلى ما هو أجمل، وجه حبيبته "شمس" التي تنتظره هناك، على المقلب الثاني من الكرة، في نصفها الشمالي.

––– 4 –––

في مطار "كوتونو" بحرٌ من البشر، ولا ينضب، يجلسُ متأملاً وجوههم بكثير خوفٍ وقلق، هذا ما أورثته إياه أمه الدافئة القلب، هذا ما أرادت له حين ولدتهُ شاعراً بآلام الناس ومعاناتهم، ماسحاً عن وجوههم بعينيه الكاشفتينِ ملامح التعب والحزن.

إلى جانبه يجلس رجلٌ هرمٌ يحاول أن يعبّئ استمارة تسجيل الخروج للمغادرين، لكنّ يده الراجفة لا تساعده على القيام بذلك.

يتبرع هو بإنجاز الأمر، فيتناول جواز سفر الشيخ، ويبدأ بملء الاستمارة، الاسم: أحمدو، العائلة: باموالا، مواليد جمهورية مالي العام 1935، "أووووووووووف"، تخرج طويلةً منه عن غير قصد، فيضحك الشيخ طويلاً هو الآخر.

ما إن ينتهي من تعبئة الاستمارة، حتى يسلّمها إلى ضابط الجوازات المسؤول، ويعود سريعاً إلى الشيخ، محاولاً إفهامه أن المهمة قد تمّت، ويقابله الشيخ المعروف بمثله، إذ يخرج كيساً من حقيبته ويمدّه على المقعد الحديديّ بينهما، فلا يفهم منه إلا أنه يدعوه لمشاركته طعامه، "أجنحة دجاج متبلة بأنواع البهارات والفلفل الإفريقي الأحمر الحار، وسمك مجفف"، الدعوة وصلت، والشيخ يلحّ عليه بتكراره عبارة "باسم الله، باسم الله"، أجل، باسم الله سيأكل وسيبدي للشيخ ما يستحقه من الشكر.

الفصل الرابع

نوارس العتمة

مثل النوارس..

لا أرى شيئاً أمامي ..

غير هذا الأفق ..

لا أدري مداه ..

ولا أريد

مثل النوارس ..

تعتريني رعشةٌ ويدق قلبي ..

حين تأتي موجةٌ ..

بالشوق تسكرني .. وأسكرها ..

وأسالها المزيد

مثل النوارس ..

لا أخاف الموج ..

حين يثور في وجهي ويشطرني ..
ويبدو في سواد الليل
كالقدر العتيد

فاروق جويدة

--- 1 ---

يجلس وحيداً بين محطتين في عمره، بين مطارين، بيروت و"كوتونو"، ويبكي بكاءً مراً لم يعهد مثيلاً له منذ أخفى دمعتين يوم ودّع ابنته، حبيبته الصغيرة في مطار بيروت في الخامس والعشرين من شهر كانون الأول قبل عشر سنين كاملة.

للمرة الأولى يبكي علانية، هذه المرة لا يخفي دموعه، كان يعتقد قبلاً أنّ أمرّ الدمع هو ما يخفيه الإنسان، لكنه الآن يجاهر بدمعه لأن شوقه أكبر، وحبه أكبر ومرارة غربته الآن أكبر، ولا يستطيع في هذه اللحظة بالذات أن يمنع نفسه من البكاء، لذلك يبكي، على عشر سنوات أهدرها في بلد الغربة الإفريقية الطويلة، دون إدراكٍ لما يفوته من العشقِ الكبير والحب الرائع الذي كان ينتظره هناك في لبنان، في مكان ما، ليس أسودَ كالشوكولاته بل أبيض كالحليب، الحليب الذي يعشقه في النسكافيه البيضاء إلا من قليل لون أسود، و"تسعة وتسعين بالمائة حليباً" كما اعتاد أن يعطي توجيهاته إلى النادل في المقهى الزجاجي.

يتذكرُ، هو الذي قال لها يوم التقاها: "لا مكان في قلبي للحب، لن أحبكِ". لما لمْ تقلْ، كما أنثى باولو كويليو، في إحدى رواياته: "مشكلتكَ لا تكمنُ بي، بل بكَ، لذا من الأفضل أن تقضي بعضَ الوقت وحدكَ".

– "لمالمْ تريني خريطةَ جبال البيرينيه حيثُ تبدأ درب الحج التي تعود إلى القرون الوسطى، الدرب إلى سانتياغو؟، لمالمْ تطلبي مني أن أمشي الدرب بطولها، وهناك تكونين في انتظاري عند الطرف الآخر؟"، وعندها فقط سوف تتقبل منه كلّ ما يتفوه به.

– " هل تقبل مني قولي أنني كففتُ عن حبها؟، أنني لم أعشْ كفايةً بعد؟، أنني أنتظرُ وصولي إلى نهاية درب الحج الذي فرضته عليّ الحياة كي أحبها كما يليق بها؟ أن أحبها أكثر".

– " أيها الوقت العظيم، يا سيد الأشياء وصانعَ المعجزاتِ، لماذا تتركني للغد ولا تمسكُ بيدي الآن أنا المحتاجُ إليكَ ؟. لماذا تسرق مني مليون ابتسامةٍ وتزرعُ في عينيّ دمعةً لا تجفّ؟ يا سارق الابتساماتِ ويا زارعَ النقمةِ بين المحبين، أيها الوقت اقتلني، كي انتقمَ منّي، وربما كي أمحوَ من ذاكرتها المليون "أحبكِ" التي قلتها لها".

– "أذكرُ أيها الوقتُ، يا خانقي في الوحدةِ والقابض على قلبي في اللقاء، أذكرُ أنني أحببتها كما لو لمْ أعرفْ قبلها الحب، هي القديرةُ فيه كإلهةٍ من عوالم الأساطير اليونانية القديمة، المتعاليةُ في عرش سماواتهِ الخفيةِ على الخلقِ، البسطاء الساذجين في الحياةِ والحب مثلي".

– "أذكرُ أنها كانت تضيءُ ليلي بنور وجهها يحملُ إليّ زقزقاتِ العصافير وتغريد الطيور، يحملُ فوح رحيق الأزاهيرِ، وعزف آلافِ الجنياتِ لقلبي الراقص المنتشي بحضورها".

– "أذكرُ، لم يكن شبقاً بل عشقاً، ذاك الذي يجمع قلبينِ تفصلُ بينهما مسافةُ آلافٍ من الأميال، ذاك الذي يحرّكُ فيّ الرغبةَ العذريةَ في الافتراض لأكون أقرب إليها في الخيالِ، أمارسُ لعبةَ الممنوع المرغوبِ بشقاوةِ طفلٍ أحبّها ليظلّ طفلَ اللعب".

يذكرُ، لكنه يعترفُ أنهُ ربما يكونُ قد تأخر، وأنّ شعوراً خفياً باقتراب الأجل يراودهُ، يغلب على هواجسه الأخرى.

أجل، هو اقتراب اللقاء الحميم بالله، الذي كان دائماً إلى جانبهِ في كل شيء، أو هكذا كان يحلو له أن يصدق.

الله الذي ينتظرهُ الآن في نهاية المدرج، حيث سيكون اللقاء.

--- 2 ---

يتذكرُ كلّ ذلك الآن، في انتظاره إقلاعَ الطائرة.
ينظرُ إلى صورتها التي يحتفظُ بها في جيب قميصه أينما ذهب.
ترتسمُ ابتسامةٌ غريبةٌ على وجههِ، ابتسامةٌ هي مزيجٌ من الشعور بالرضا والامتلاء، ذاك العشق الذي يكوّن الأشياء من جديدٍ، يخلقها بأصابع إبداعهِ الجميل وحضورهِ الحبيب فيها.
هو ذاك السحرُ كلّه في حضور العشق من جهةٍ، والرعب كله في الشعور الرهيب بالخوف، الخوف بمعنى الفقد، أن نفقد ما عرفناهُ واعتدناهُ وصار أليفاً حميماً، أن نستيقظَ فجأةً على واقع أننا مبتورو الذاكرة والأطراف معاً، يذكرُ عبارتها " لن تطيرَ، لن تصلَ إليّ، لأنكَ ببساطةٍ مقصوصُ الجناحينِ، غيرُ قادرٍ على الطيران".
قالت له يوم احتدم الجدال بينهما في زيارته الأخيرة إليها: "أيها الأرضي، اهجر طينكَ و اتبعني، أريدكَ أن تصلَ إليّ، حلّقْ. لن تصلَ إليّ إلاّ عندما تتحرر روحُكَ من المكان، من الجسد".
هذا الجسد المكان الذي أضاع عمرهُ في تحسّسِ تفاصيلهِ، لماذا لا يألفهُ الآن؟، لماذا لا يشعرُ بالانتماءِ إليهِ الآن؟، بل بالانتماء إليها؟ إلى السماء التي أعلنت نفسها ربّةً لها ومتعاليةً على عرشها بزندقةٍ لا تشبه إلا هواها الشيوعي القديم.

– "أن تتحرر روحُكَ من جسدك، من طينكَ، من شبقك ونزقكَ الإفريقي، أن تتطهر لتحلّقَ أعلى لتصل إليّ".

كلماتها الجميلة، كلماتها المرعبة، يستعيد الكلمات التي تزرع في داخلهِ رعباً من الآتي، من اللحظاتِ القليلةِ القادمةِ.

يتناول قصاصة ورق من حقيبته، يشعرُ في تلك اللحظة بحاجةٍ ماسةٍ إلى الكتابة، وفيه ذاك الإلحاح الغريب على فعل ارتكاب جريمةٍ أو الاعتراف بها.

–" أردتُ أن أكتب لكِ رسالة، أن أخطّ فيها اعترافاتٍ أخيرةً، ولا أدري لماذا، لكنني ظننتُ أنني قد لا أراكِ ثانيةً، لذا شرعتُ في الكتابة، وقد تعتبرين الأمر خيانة للوعد الذي قطعتهُ على نفسي بأن ألقاكِ قريباً، وأن أعود لأجل عينيكِ لأكون معكِ ولكِ، أجل، أنا معكِ حتى لو غبتُ أو متُّ".

و تصيرُ فكرةُ الموتِ هي الأقرب لأنه المعتاد ألا يرى فرحتهُ مكتملةً يوماً.

هذا الموت كفكرةٍ ظلت تراودهُ طويلاً، يخاطبهُ بحرارة العاشق ووجدانية المقترب حدّ التوحد، يقول في نفسه: "أيها الموت العظيم، أرني جمالكَ في عمري، جرّبني".

أراد أن يكتب لها هذه الكلمات، أن يقول لها إنه يحبها حقاً، أكثر من كل ما توهّمهُ قبلاً، و أعظمَ من كلّ ما قد يكون غداً إن لم تكن هي ليزداد هو اكتمالاً.

يحبّها و لا يصدقُ أنه قادرٌ على ألا يكون معها، حدّ اشتعالها به، حدّ بياض الصدر واحتراق الشفتين. لا يصدق أنه هنا وهي هناك، وأن بينهما هذه المسافة التي تمتد من مقدمة الطائرة التي ستقله، حتى نهاية مدرج المطار في بيروت، مسافة انتظار سيطول، أطول بكثير مما ظنّ هو وظنّت هي.

أدركَ أن شيئاً ما سيحصل، وأن الطائرة التي تكاد تقلع به لن تحطّ.

لهذا الشعور الذي قبض على صدره وكاد يخنقه منذ الصباح، حاول أن يكتب كل اعترافاته على قصاصة الورق تلك.

– "أعترف بأنني أحبكِ، بل وبكل أنانية العاشق، أحبّ أنني استهلكتُ وقتكِ كلّه، وسرقتُ من عمركِ زهرةً لربيع عمري الذي كاد ينقضي بين غربة الروح وغرابة الحياة. أنا الأنانيُّ لأنني ذرفتُ دمعكِ حين الوداع، حين كنتِ تنهمرين عليّ دمعةً دمعةً ثم تزرعين ابتسامةً كي لا أحزن أنا. و من قال أنني كنتُ لا أبكي خلفَ وجهٍ ادّعى الصّبر وليس بحوزتهِ إلا الفقد كما أم الشهيد؟".

--- 3 ---

– "الآن تتوضح الصورة أكثر وتنضج الفكرة التي طالما راودتني قبلاً، لما لا أموتُ الآن؟ لما لا أحرر هذه الروح من جسدٍ أثقلها بالخطيئة والغوايات الكثيرة؟، لما لا تتحررُ روحي وتطير إليكِ الآن؟ لما لا يصيرُ الموتُ ورديّاً وعذباً، حين أنتِ وأنا يقتلنا هذا الشعور القاتم القاتل بالتشظي؟، حين أنسلخُ عنكِ وفيّ مليون رغبةٍ بألا أبتعد ولو خطوة، حين أتمنى في تلك اللحظة التي أفارقكِ فيها أن يتوقف الزمان وينتحر الوقت عندما أنا أضمكِ، وأقبّلكِ، وأشمكِ، كما لو أننا ما عرفنا الطعم والرائحة واللون قبلنا".

الطائرة تعود به إلى الخلف، تجرّها قاطرةُ شحنٍ، تتوقف بها عند بداية مدرج الإقلاع، يشرع القبطان في التأكد من سلامة أجهزة الملاحة والطيران، يُدير المحرّك لتبدأ الطائرة بالسير على المدرج ببطء.

أمامه رجلٌ هرمٌ، يحكي، ربما مع نفسه، فلا أحد يشاركه المقعد المجاور لمقعده، الطائرةُ تهتزّ قليلاً في سيرها الناعم على المدرج.

وفي اللحظة الغرائبية تلك، أحس برغبته في البكاء، وأعاده ذلك إلى صباح اليوم ذاته، فقد شعر وهو في قاعة الانتظار في المطار، برغبة في الذهاب إلى الحمام، وهناك، أقفل الباب على إصبعه خطأً، كاد يصرخ من شدة الألم، إلا أنه لم يفعلْ، واكتفى بأن وضع إصبعه في فمه ومصّه، وفي لحظة الألم المروّع تلك، تذكّر عادته القديمة التي تمثلت في هذا النوع من المصّ اللذيذ الذي أدمنه في علاقاته النسائية العديدة، والتي لم يعد يذكر منها في اللحظات الطويلة لعزلته بنفسه سوى حلمات أثداء طفلاتٍ أحبّهن، نساءٍ كنّ كالأمهات يُرضعنه ما فاته من حليب أمه وهو الحاضر الغائب في حياتها، إلا أن اللذة مصحوبةً بالألم ظلت السمة الأقوى في علاقته بالأنثى، والحياة، والأنثى الحياة.

الطائرة تتحضّر للإقلاع، تشبه نمراً رابضاً، متحفزاً للانقضاض على فريسةٍ ما، ويقع هو في فخ المخيلة من جديد، "لماذا لا تصيرُ الطائرةُ نسراً؟، لماذا لا ترفّ بجناحيها ثمّ تقلع؟، لماذا يبقى هذا الإنسان الغبي، مهما حقق من معجزات العلم، صغيراً أمام قدرات الطبيعة المبدعة؟".

المخيلة الغريبة، لا يمتلك قدرةً على لجمها، حتى في أصعب الأوقات وأحلك الظروف، يرمي بنظره في أرجاء الطائرة ليصطاد وجوه الحسناوات الكثيرات في مثل هذه الرحلات "اللبنانية بامتياز"، نعم، هو أزعر، ثمّ، فجأةً، يستيقظ من أحلامه فيهنّ، في هذه اللحظة بالذات، وهو مقدمٌ على الارتماء في أحضان الله كطفلٍ صغير، يكاد يختم القرآن، يقرأ السور القصيرة منه، ويلتذّ بذكر أحد أحبّ الأسماء الحسنى لله إلى قلبه، "يا ذا الجلال والإكرام"، هي عاداته السيئة في الاقتراب من الشيء حدّ التوحّد به، والابتعاد عنه حدّ الكفر به، وبينهما، ارتياحه حين يبدأ جميع ركاب الطائرة من المسافرين بالخوف، يخاف

قبلهم ويرتاح قبلهم، ربما كتب عليه دوماً أن يكون الأقرب، ربما كان مقدراً له أن يكون ولياً أو قديساً.

--- 4 ---

يكتب **اعترافاته** الأخيرة، في اللحظة التي يتسارع فيها دوران محرك الطائرة، لتبدأ سيرها على المدرج استعداداً للإقلاع، "لا يليق بالعاشق إلا أن يكون ذاته في العشق ليكون للجزءين أن يلتقيا، ليكون لها أن تتنازل عن بعض أنوثتها فيكون له أن يصيرها، ذكراً بحب أنثى، بغيرة أنثى، بجنون أنثى، وكلما انتهيا إلى تحققٍ يبدءان من جديد نحو كون أجدّ".

ليس الحب إلا تنازلاً للآخر عن أغلى ما نكونه، ليس إلا أنت ممزوجة بكلي المذكر، في اشتهائه، في اشتياقه، في التوحد الجميل، في دفء الشعور، وبرد الانتظار.

- "الحب أسود أبيض، ليل نهار، دمع وفرح، رؤية العين ورؤيا القلب".

- "الحب نعم، لكن الاستحواذ لا".

-"العشق نعم، لكن التملك لا".

- "بالحب يحيا الحب، وبالاستحواذ يموت، بالنشوة يحيا لكن بالسطوة المريضة، لا سطوة الحضور المحبب، يموت".

- "لماذا أنا هناك و أنتِ هنا؟ عشق كثير وانتظار يسدل ستائره علينا لنجتمع سراً خلف ماهية الوجود ونسبح في اللاحدود، في الماء الكبير، في اللحظة التي تنتظرني عند نهاية مدرج الإقلاع، لماذا أنا وأنتِ كسمكتين سبحتا ضد التيار والتقتا حيث موضع الإخصاب كما أسماك ألاسكا النهرية؟".